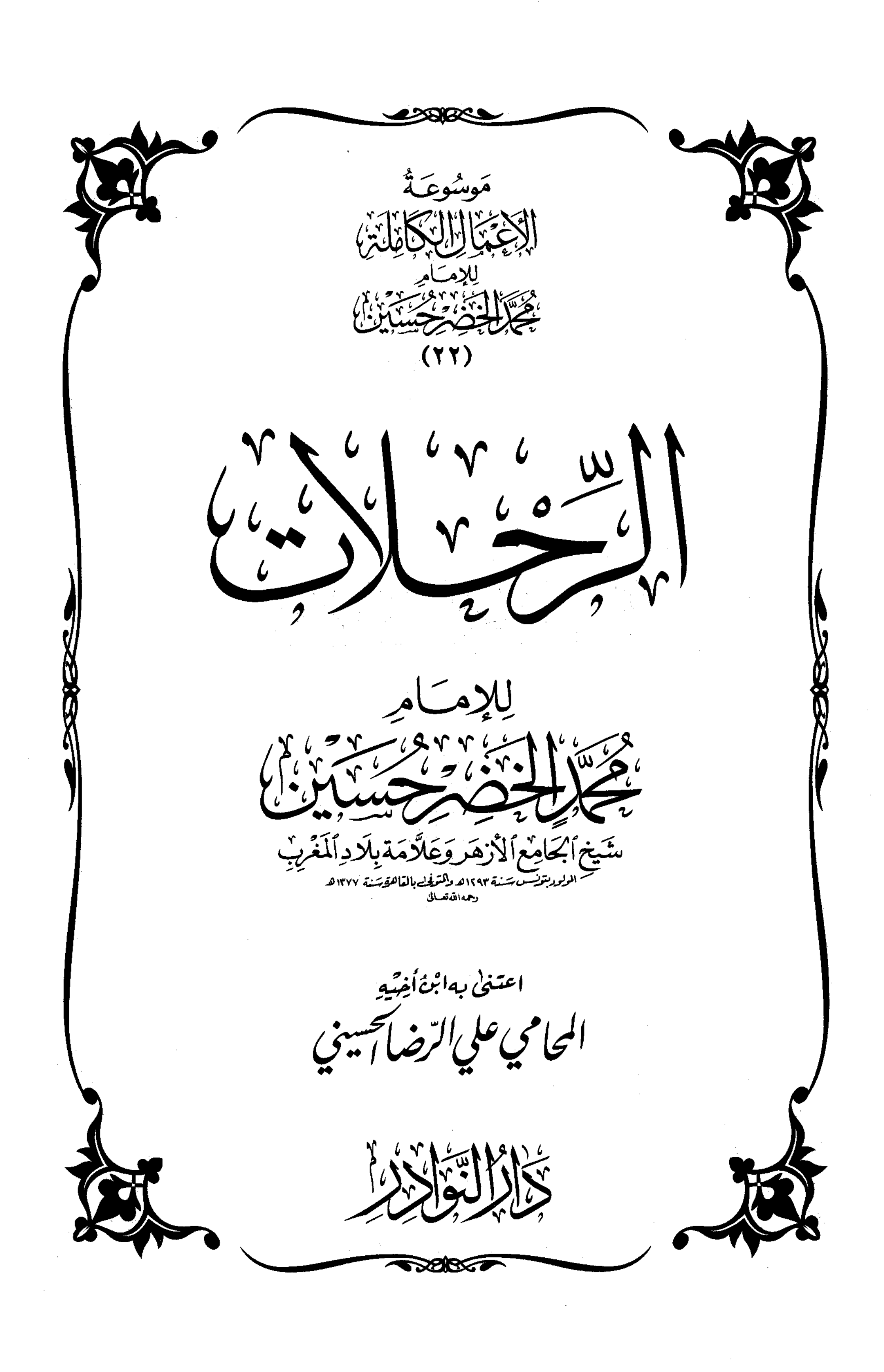


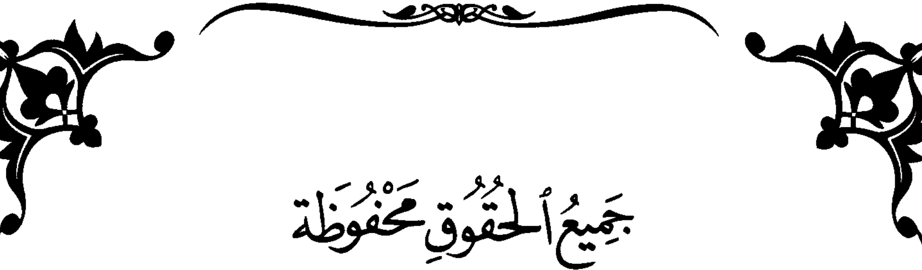
موسوعة
الأعمال الكاملة
للإمام
محمد الخضر حسين
(٢٢)

الرحلات

للإمام
محمد الخضر حسين
شيخ الجامع الأزهر وعلامة بلاد المغرب
المولود بتونس سنة ١٢٩٣ هـ والمتوفى بالقاهرة سنة ١٣٧٧ هـ
رحمه الله تعالى

اعتنى به ابن أخيه
المحامي علي الرضا الحسيني

دار النوادر



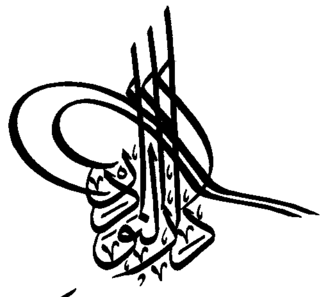



الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ردمك : ٩٧٨ ـ ٩٩٣٣ ـ ٤١٨ ـ ٤٧ ـ ٢ : ISBN



9789933418472



سورية - لبنان - الكويت

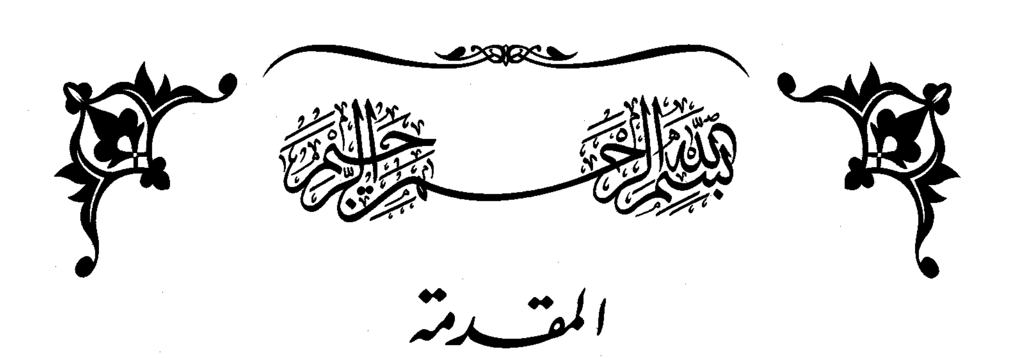
مُؤَسَّسَة دَار النَّوَادِر م.ف - سُورية ✱ شَرِكَة دَار النَّوَادِر اللُّبْنَانِيَّة ش.م.م - لُبْنَان ✱ شَرِكَة دَار النَّوَادِر الكُوَيْتِيَّة - ذ.م.م - الكُوَيت

سورية - دمشق - ص. ب : ٣٤٣٠٦ - هاتف : ٢٢٢٧٠٠١ - فاكس : ٢٢٢٧٠١١ (٠٠٩٦٣١١)
لبنان - بيروت - ص. ب : ١٤/٥١٨٠ - هاتف : ٦٥٢٥٢٨ - فاكس : ٦٥٢٥٢٩ (٠٠٩٦١١)
الكويت - حولي - ص. ب : ٣٢٠٤٦ - هاتف : ٢٢٦٣٠٢٢٣ - فاكس : ٢٢٦٣٠٢٢٧ (٠٠٩٦٥)

أُسِّسَها سَنَة : ٢٠٠٦م



نُور الدِّين طَالِب
المُدِير العَام والرَّئِيس التَّنفِيذِي



المقدمة

قام فضيلة الإمام الأكبر المرحوم محمد الخضر حسين ـ رضوان الله عليه ـ برحلات علمية باعتبارها وسيلة لترقية العلوم والآداب، وتهذيب النفوس، وإصلاح حال الاجتماع.

فقد نفر الإمام الأكبر إلى بلاد طلباً للعلم والتفقه في الدين، وسار في الأرض للاطلاع والاعتبار بأحوال الأمم الماضية والحاضرة. وخرج من تونس إلى الشرق مهاجراً في سبيل الله ورسوله بعد أن سلط عليه الاحتلال الفرنسي سيف الإرهاب، وأصدر عليه حكماً بالموت، كما هاجر من دمشق إلى القاهرة لنفس السبب، وقضى حياته في مصر داعياً إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومدافعاً عن الإسلام بكل ما أوتي من قوة وجرأة وإقدام، حتى وافاه الأجل فيها، ووقع أجره على الله.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[الأنعام: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[النساء: ١٠٠].

قام المؤلف ـ رحمه الله ـ بالعديد من الرحلات العلمية إلى الشرق والغرب. فقد زار طرابلس بليبيا عام ١٣١٧هـ ـ ١٨٨٩م، وفي عام ١٣٢١هـ ـ ١٩٠٣م قام برحلته العلمية الأولى إلى الجزائر، وعاد لزيارتها عام ١٣٢٢هـ ـ ١٩٠٤م. كما بدأت رحلته الأولى إلى الشرق عام ١٣٣٠هـ ـ ١٩١٢م في الشهر السابع حتى الشهر الحادي عشر، زار خلالها مالطة، والإسكندرية، والقاهرة، وبور سعيد، ويافا، وحيفا، ودمشق، وبيروت، وإستنبول، ثم عاد إلى تونس، ولم يمض شهر حتى عزم على الهجرة إلى دمشق فراراً بدينه. فارتحل إليها متنقلاً من مصر إلى الشام والحجاز، ثم ألبانيا وبعض بلاد البلقان والآستانة وألمانيا.

وفي عام ١٩٢٠م ارتحل إلى القاهرة، واستقر فيها حتى آخر حياته، وقام خلالها برحلات إلى سورية ولبنان والحجاز.

وكم كان متشوقاً للعودة إلى الوطن الأم تونس، بعد أن نالت استقلالها. وقد طلب إليه الرئيس الحبيب بورقيبة العودة، وكانت بين الرجلين مودة وصلة وثيقة منذ أيام الجهاد والكفاح في مصر. وما إن قبلها الشيخ الخضر، وتهيأ لها، حتى أدركته المنية بعيداً عن الوطن.

لقد دوّن ـ رحمه الله، وأجزل إليه الثواب ـ مشاهداته عن بعض الرحلات التي قام بها إلى البلدان الأخرى، ونحن إذ نقدم للقارئ المسلم هذه الرحلات، فإن الدافع لذلك هو ما تضمنته من محادثات وتحارير علمية غايتها الدعوة إلى الحق والإصلاح في كل زمان ومكان.

ولم نتمكن من العثور ـ رغم ما بذلناه من جهد ـ على مذكراته كاملة عن ألمانيا، والتي نشرت في «صحيفة البلاغ» في بيروت عام ١٩١٨م، وجريدة

«المقتبس» بدمشق والأمل أن نجدها كاملة في المستقبل إن شاء الله تعالى.

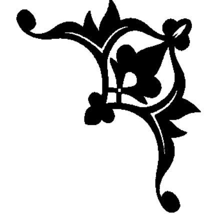
وقد اكتفينا بنشر ما اختصرته مجلة « المقتبس» من المشاهدات في الجزأين السابع والثامن من المجلد التاسع ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٣م نقلاً عن جريدة «المقتبس» والتي لم نعثر عليها رغم الجهد المبذول.

هذه صفحات من رحلات مشرقة مليئة بالإيمان والجهاد والبذل والتضحية، وهي لمحات عن حياة عالم مجاهد أمضى عمره داعياً إلى الإسلام، مدافعاً عن الإسلام، والله نسأل السداد والتوفيق.

علي الرّضا الحسيني

❐ ❐ ❐





أثر الرّحلة في الحياة العلمية والأدبية[(١)]

يكثر الراحلون من بلاد إلى أخرى، والغرض من هذه المحاضرة: البحث عن رحلات أهل العلم والأدب، وما تأتي به من ثمار طيبة؛ لنعرف كيف تكون الرحلة من وسائل ترقية العلوم والآداب، وتهذيب النفوس، وإصلاح حال الاجتماع.

ولعل قائلاً يقول: إن فائدة الرحلة قد عرفها الناس على اختلاف أصنافهم، وتفاوت طبقاتهم، وأصبحت من المعلومات الموضوعة على ظاهر اليد، فالحديث عنها صرف للوقت في غير جدوى.

وأقول في الجواب: إني في شك من هذا؛ لأني أرى كثيراً ممن وهبهم الله القدرة على الرحلة، وهيأ لهم وسائلها، لا يُقبلون عليها، وينصرفون عنها انصرافهم عن الأشياء التي يرونها خالية من كل فائدة ولذة.

على أني أريد التنبيه لما في الرحلة من فوائد؛ ولأضعها أمام نشئنا، حتى إذا خطر لهم ما في الرحلة من حرج وعناء، نظروا إلى هذه الفوائد، فيخف وزن تلك المتاعب، وتذهب أمام أنظارهم غير محتفل بها.

---

(١) محاضرة الإمام بالمجمع العلمي العربي بدمشق في جمادى الآخرة عام ١٣٥٦هـ. ونشرت في مجلة «المجمع» ـ الجزء السابع والثامن من المجلد الخامس عشر. كما نشرت في مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الثاني من المجلد العاشر.

• الرحلة في نظر الإسلام:

لم يدَع الإسلام وسيلة من وسائل الرقيّ إلا نبه عليها، وندب إلى العمل بها، وهذا شأنه في الرحلة، فقد دعا إليها رامياً إلى أغراض سامية، منها: طلب العلم، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة: ١٢٢].

ويلحق بالتفقه في الدين: كل علم يعد في وسائل الرسوخ في علوم الدين؛ كالنحو، والبلاغة، بل يلحق بالتفقه في الدين كل علم يتوقف عليه استقلال الأمة وسلامتها من أيدي أعدائها؛ كفنّ صنع الغواصات والطيارات وما شاكلها من وسائل القوة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[الأنفال: ٦٠].

ومن هذه الأغراض: الاعتبار بأحوال الأمم الماضية، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[الأنعام: ١١].

ويلحق بأحوال الأمم الماضية: أحوال الأمم الحاضرة، متى كان في النظر إليها عبرة ينتفع بها في وجه من وجوه الإصلاح.

ومن هذه الأغراض السامية: التخلص من دار البغي والضلال إلى الإقامة في دار عدل وهداية، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[النساء: ١٠٠].

هذه الآية وأمثالها واردة في قوم كانوا يقيمون في دار غواية وعسف، وكان في هجرتهم إلى المدينة بعد عن مشاهدة المنكرات، وشد لأزر المسلمين، وتكثير لسوادهم، فإذا تشابهت البلاد في الاستخفاف بأمر الدين، فعلى كل عالم أن يجاهد في الدعوة إلى الحق والإصلاح أينما كان.

*** المثبطات عن الرحلة:**

لا أريد من المثبطات عن الرحلة: العوائق التي ليس في استطاعة الشخص علاجها؛ كفراغ يده من نفقات السفر، وكقيامه على أسرة إذا فارقها، وقعت في حاجة ونكد من العيش، بل أريد من المثبطات: ما يعرض للنفوس الضعيفة، ويغلب على أمرها، ولولا ضعفها، لما كان له عليها من سبيل.

ومن هذه المثبطات: استعظام الرجل مفارقة من يعزّ عليه من قريب أو صديق.

ألقي على إمام الحرمين وهو على المنبر سؤال، وهو: لماذا كان السفر قطعة من العذاب؟ فقال: لأن فيه فراق الأحبة.

وفي الناس من يذكر ما في الرحلة من متاعب بدنية، فيحجم عنها، وأكثر من يعرض لهم هذا المثبط أولئك الذين ينشؤون في ترف وانحلال عزيمة، فيخشون أن يفوتهم ما اعتادوا من راحة ورفاهية، ولو أياماً قليلة.

وقد يحجم الرجل عن الرحلة مخافة أن ترمي به بين أقوام لا يعرفون أدبه أو حسبه، فيجد من مرافقتهم أو معاشرتهم كدراً، وإلى مثل هذه الآلام النفسية أشار ابن جبير بقوله:

لا تغترب عن وطنٍ ... واحذرْ تصاريفَ النوى
أما ترى الغصنَ إذا ... ما فارق الأصل ذوى

وقال الرحالة ابن سعيد الأندلسي متألماً من بعض ما لاقاه في بلاد الشرق:

وأنادَى مغربياً ليتني ... لم أكن للغرب يوماً أُنسبُ

نـــسبٌ يـــشرك فيـــه خامـــل   ونبيـــه أيـــن منـــه المهـــربُ؟
أترانـــي لـــيس لـــي جـــدٌّ لـــه   شـــهرة أو لـــيس يُـــدرى لـــي أبُ

*** علاج هذه المثبطات:**

يعالج الرجل هذه المثبطات الناشئة عن ضعف النفس وقلة تمرينها على احتمال المكاره؛ بأن يذكر ما تأتي به الرحلة من الفوائد العلمية أو الأدبية، خاصة أو عامة، فإذا وثقت نفسه بغايتها النبيلة، وعواقبها الحميدة، سهل عليها كل صعب، واستهانت بكل خطر.

قال عبد الملك بن سعيد في وصية ابنه علي عندما أراد الرحلة إلى بلاد الشرق:

وكـــلّ مـــا كابدتـــه فـــي النـــوى   إيـــاك أن يكـــسر مـــن همتـــك

وليذكر أن هذه المؤلمات تذهب، وأن ثمرة الرحلة لذيذة باقية.

قال القاضي محمد بن عيسى أحد الراحلين من الأندلس إلى الشرق بعد أوبته:

كأن لم يكن بَيْنٌ ولـم تـك فرقـةٌ   إذا كان مـن بعـد الفـراق تلاقـي
كأنْ لم تـؤرق بـالعراقين مقلتـي   ولم تمْرِ كفُّ الـشوق مـاء مـآقي
ولم أزر الأعراب في جنب أرضهم   بـذات اللـوى مـن رامـة وبـراق
ولم أصطبح بالبيد من قهوة الندى   وكأس سقاها في الأزاهـر سـاق

ونرى في كتب الأدب شعراً كثيراً يقصد ناظمه الرد على من يحاول تثبيطه عن الرحلة، كما قال أبو تمام:

آآلفـــةَ النجيـــب كـــم افتـــراق   أظـــلّ فكـــان داعيـــة اجتمـــاع

وقال آخر:

تقول سليمى لـو أقمـت بأرضـنا ... ولـم تـدر أنـي للمقـام أطـوفُ

وقال ابن دراج:

ألم تعلمي أن الثـواء هـو النـوى ... وأن بيـوت العـاجزين قبـور

ويروى: أن المأمون أراد الخروج في بعض الحروب، فوقفت له جارية ممن شغف بهن، ورغبت إليه أن لا يخرج، فقال: لولا قول جرير:

قـوم إذا حـاربوا شـدوا مـآزرهم ... دون النسـاء ولـو باتـت بأطهـارِ

لما خرجت.

*** فوائد الرحلة:**

إذا درسنا تاريخ العلماء والأدباء الذين رحلوا عن أوطانهم، ووجهنا النظر إلى ما نتج عن رحلاتهم من فوائد تعود عليهم أنفسهم، أو على قومهم، أو على الأوطان التي نزلوا بها، وقفنا على فوائد كثيرة يقدرها الباحثون عن وسائل رقي الأفراد والجماعات.

*** أثر الرحلة في حياة الراحل:**

من أنفس ما يكسبه الرجل في رحلته: أن يعلم أشياء لم يكن يعلمها من قبل، فكم من عالم لم يبلغ المقام الذي يشار إليه بالبنان إلا بالرحلة! ولابن خلدون في «المقدمة» مقالة افتتحها بقوله: «إن الرحلة في طلب العلم ولقاء الأساتذة مزيد كمال من التعلم»، وختمها بقوله: «فالرحلة لابد منها في العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ والتلقي عن الرجال».

وفي الرحلة عون على التمكن من بعض الأخلاق السامية، مثل: خلق

الصبر؛ لكثرة ما يلاقيه الراحل من متاعب بدنية، وآلام نفسية، ومثل: أدب المداراة؛ فإن البعيد عن وطنه أشد شعوراً بالحاجة إلى هذا الأدب ممن يعيش بين قوم يعرفون من حسبه ومكانة بيته ما يجعل صراحته خفيفة على أسماعهم.

ولا يخلو الراحل من أن يلاقي في رحلته رجالاً صاروا مثلاً عالية في مكارم الأخلاق، فيزداد بالاقتداء بهم كمالاً على كمال.

بقي يحيى بن يحيى بن بكير النيسابوري عند مالك بعد أن أتم الرواية عنه، وقال: أقمت لأستفيد من شمائله.

وقد يرى الرجل في وطنه سلطاناً طاغياً، وحكماً جائراً، فيتخلص بالرحلة إلى بلد يكون مجال الحرية فيه أوسع.

كان أبو جعفر أحمد بن صابر القيسي كاتباً للأمير أبي سعيد فرج بن الأحمر ملك الأندلس، فكان يرفع يديه في الصلاة على ما صح في الحديث، فبلغ ذلك السلطان، فتوعده بقطع يده، فقال: إقليم تمات فيه سنّة رسول الله ﷺ، حتى يتوعد بقطع اليد عليها، لجدير أن يرحل منه، فخرج، وقدم مصر.

وقد ينشأ الفتى في نبوغ، ويضيق بلده عن أنظاره الواسعة، فيرحل إلى مدينة تكون أوسع مجالاً للآراء الخطيرة، فتعظم مكانته، ويكثر الانتفاع بحكمته، ولولا الرحلة، لما عظم شأنه، ولما كثرت ثمرات نبوغه.

أذكر أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام مر عند خروجه من الشام بالكرك، فتلقاه صاحبها، وسأله الإقامة عنده، فقال له الشيخ: بلدك صغير عن علمي. وتوجه إلى القاهرة.

وأسوق شاهداً على هذا: أن القاضي يوسف بن أحمد بن كج الدينوري

قد بلغ في العلم مرتبة كبيرة، وقال له بعض من لقيه: يا أستاذ! الاسم لأبي حامد الغزالي، والعلم لك، فقال القاضي: ذاك رفعته بغداد، وأنا حطتني الدينور.

وقد تكون رحلة العالم أو الأديب من أسباب ظهور علمه أو أدبه، وانتشاره في الآفاق.

قال الأديب أبو بكر المعروف بابن بقي:

ولي همم ستقذف بي بلاداً نأت إما العراق أو الشآما

لكيما تحمل الركبان شعري بوادي الطلح أو وادي الخزامى

وكيما تعلم الفصحاء أني خطيب علّم السجع الحماما

وقد أطلعتهن بكل أرض بدوراً لا يفارقن التماما

وربما أدرك الرجل في وطنه ضيق عيش يخشى أن يعوقه عن الازدياد من العلم، أو التفرغ لنشره بالتدريس والمذاكرة، فيرحل حيث يلقى كفافاً أو يساراً يساعده على أن يقبل على الدرس والبحث بنفس مطمئنة.

رحل القاضي عبد الوهاب بن نصر من بغداد إلى مصر، ونبه على سبب رحلته فقال:

سلامٌ على بغداد في كل موطنٍ وحوّلها مني السلام المضاعف

فو الله ما فارقتها على قلى لها وإني بشطي جانبيها لعارف

ولكنها ضاقت عليّ بأسرها ولم تكن الأرزاق فيها تساعف

وكذلك قال أبو سعد النبرماني:

فقد سرت في شرق البلاد وغربها وطوّفت خيلي بينها ورِكابِيا

فلـم أر فيهـا مثـل بغـداد منـزلاً ولـم أر فيهـا مثـل دجلـة واديـا

ولا مثــل أهليهــا أرقّ شــمائلاً وأعـذب ألفاظـاً وأحلـى معانيـا

وكم قائل لو كـان حبـك صـادقاً لبغداد لـم ترحـل فكـان جوابيـا

يقيم الرجال الموسرون بأرضهم وترمي النوى بالمقترين المراميـا

ومما يظفر به الرجل الفاضل في رحلته: أن يتخذ في البلاد التي ينزل بها أصدقاء يغتبط بصداقتهم، والصداقة الخالصة من ألذّ ما يمتع به الإنسان في هذه الحياة، وكتب الأدب مملوءة بالرسائل والقصائد التي دارت بين علماء وأدباء اختلفت مواطنهم، وهي عامرة بروابط ناشئة بوسيلة الرحلة.

وهذا ابن خلدون ارتبط بصداقات كثيرة من علماء البلاد؛ كلسان الدين ابن الخطيب، وابن زمرك، وجرت بينه وبينهم مراسلات، وأذكر من قصيدة بعث إليه بها ابن زمرك بعد نزوله مصر قوله:

بعيشك خبرني ولا زلت مفـضلاً أعندك من شوق كمثل الذي عندي

ومثل الحافظ ابن عساكر رحل إلى بلاد العجم بعد بلاد العرب، وأذكر من قصيدة بعث بها إلى صديقه أبي سعد السمعاني قوله:

أنــــسيت ثـــدي مـــودة بينـــي وبينـــك وارتـــضاعه

*** ماذا يستفيد قوم الرجل من رحلته؟**

قد تحظى البلاد بالعلم بعد انقطاعه عنها، أوتقوم سوقها فيها بعد خمولها، والفضل في ذلك لرجال يرحلون إلى الحواضر التي هي منبع العلوم، ثم يعودون وقد امتلؤوا مما اغترفوه من العلوم والفنون.

وقد بلغت الحالة العلمية بالأندلس بعد عودة ابي الوليد الباجي من

رحلته المشرقية منزلة أرفع وأرسخ مما كانت عليه قبل أن يعود.

وارتحل أبو القاسم بن زيتون التونسي في أوساط المئة السابعة إلى المشرق، فبرع في العقليات والنقليات، ورجع إلى تونس، فأتبعها بعلمه الكثير، وأسلوب تعليمه البديع.

ويرحل العالم أو الاديب من وطنه وهو يحمل علماً غزيراً، أو يتحلى بأدب سني، وينزل بين جماعات من بلاد مختلفة، فيرونه مثالاً لأهل العلم والأدب من قومه، فيرتفع شأن قومه في أنظارهم، هذا إلى مايصفه لهم من محاسن قومه، أوينقله إليهم من ثمرات أفكارهم.

*** ماذا تستفيد البلد ممن يرحلون إليهم من ثمرات أفكارهم؟**

يرحل العالم أو الأديب، وينزل ببلد، فيبذر بها متى كانت في حاجة إلى أمثاله: علماً، أو أدباً، ومن ذا ينكر أن بلاد الأندلس قد استفادت من العلماء الذين رحلوا إليها من الشرق، مثل: تاج الدين بن حمويه السرخسي، وأبي علي القالي، كما استفادت دمشق من أمثال ابن مالك، وابن السبكي، واستفادت مصر من أمثال أبي حيّان، وابن خلدون؟.

وهذا المعري يحمد السفر الذي جاء بالقاضي عبد الوهاب بن نصر من بغداد إلى المعرة، فقال:

والمالكي ابن نصر زار في سفرٍ ... بلادنا فحمدنا النأي والسفرا
إذا تحدث أحيا مالكاً جدلاً ... وينشر الملك الضليل إن شعرا

وتفقه البربر في علوم الدين عن عشرة من فقهاء التابعين بعثهم عمر ابن عبد العزيز لهذا الغرض خاصة.

ونرى في تراجم كثير من العلماء الراحلين: أنهم كانوا يُلقون في البلاد

التي ينزلون بها دروساً، أو يُدرسون بها علوماً يتلقاها عنهم بعض أهل العلم.

فرحلات العلماء والأدباء تنقل العلم والأدب من بلد إلى آخر على وجه أثبت وأنفع مما تنقله المؤلفات وحدها.

*** أثر الرحلة في تنمية العلوم:**

للرحلة فضل في نماء العلوم واتساع دائرتها، وكم من كتاب يعدّ في علمه من أمهات الكتب هو وليد الرحلة! ذلك أن أسد بن الفرات الراحل من القيروان إلى الشرق ورد مصر بعد أن تلقى العلم في الحجاز والعراق، وألقى على ابن القاسم أسئلة يطلب الجواب عنها على مقتضى مذهب الإمام مالك، وجمع تلك الأسئلة وأجوبتها في كتاب يسمّى: «الأسدية»، ثم رحل سحنون من القيروان بالأسدية إلى ابن القاسم، وعرضها عليه، وهذّبها، وأضاف إليها مسائل أخرى، وصارت تسمى: «المدونة»، وهي المشار إليها بقول بعض أهل العلم:

أصبحت فيمن له علم بلا أدبٍ ... ومن له أدب عار عن الدين

أصبحت فيهم فقيد الشكل منفرداً ... كبيت حسان في ديوان سحنونِ

وبيت حسان الذي لم يرد في «المدونة» غيره من الشعر هو قوله:

وهان على سراة بني لؤي ... حريق بالبويرة مستطير

ومن فضل الرحلة: أنها حفظت جانباً عظيماً من التاريخ، حفظته الكتب التي يودعها مؤلفوها ما شاهدوه في أسفارهم من وقائع وأحوال، مثل: رحلة ابن بطوطة، ورحلة العبدري، ورحلة ابن جبير، ورحلة خالد بن عيسى البلوي، وغيرها؛ فإنا نرى في هذه الرحلات أشياء لا نجدها فيما بين أيدينا من كتب التاريخ.

• أثر الرحلة في ثراء الأدب:

للرحلة أثر في ثراء الأدب لا يقل عن أثرها في ثراء العلم، فكم من قصيدة لا ينظمها الشاعر إلا حين يعزم على الرحلة لإلقائها بين يدي ملك أو وزير أو وجيه، مثل قصيدة:

أدرك بخيلك خيل الله أندلُسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا

فإن صاحبها أبا عبدالله بن الأبار الراحل من الأندلس قد نظمها استنجاداً لأمير تونس، وألقاها بين يديه.

ومما يرجع الفضل فيه للرحلة: ذلك الشعر الوارد في التشويق إلى الوطن، أو الأهل، أو الإخوان، ومن هذا الباب: قول محمد بن يوسف الدمشقي يتشوق إلى دمشق وهو ببلاد الروم:

بعادٌ يزيد الجوى والحنينا ... وبَيْنٌ يعلّم قلبي الأنينا

فراقٌ أذاب الحشا أدمعاً ... فأجرى بصافي الدماء العيونا

إلى أن قال:

وجاد الحيا أربعاً بالشآم ... وسلّم صحباً بها قاطنينا

رحلنا فما تابعتنا القلوب ... وسرنا فظلت لديكم رهونا

وأذكر بهذه المناسبة: أن أستاذنا المرحوم الشيخ سالم أبا حاجب كان قد سافر إلى إيطاليا، وبعث رسمه إلى بعض أصدقائه في تونس، وكتب عليه البيتين:

لما شكت شحط النوى روحي التي ... أبقيتها عند الأحبة بالوطنْ

أرسلت تمثالي لها بـوّاً[1] عـسى تسلو فـلا تبغـي التحاقـاً بالبـدن

*** أثر الرحلة في تعارف الشعوب:**

لا ينزل الرجل الفاضل بوطن إلا التقى بطائفة من فضلائه، والشأن أن يصف لهم بعض النواحي من حياة قومه العلمية والاجتماعية، ثم إذا عاد إلى قومه، وصف لهم حال الأوطان التي نزل بها، فيكون كل من الشعوب التي رحل منها، أو نزل بها، على خبرة من حال الشعوب الأخرى.

وقد نبهنا على أن الرجل الطيب السريرة يتخذ في كل وطن أصدقاء، وهذه الصداقات تعد فيما يربط بين الشعوب الرابطة الوثيقة، وتعارف الشعوب بوسيلة العلماء والأدباء يثير في نفوسهم عواطف الائتلاف والاحترام.

وإذا كان من أفضل آثار الرحلة: عقد رابطة التعارف والتعاطف بين الشعوب، فعلى المستطيعين منا أن يخصوا البلاد الشرقية بجانب عظيم من رحلاتهم، ولو وجدوا في سبيل ذلك مشاق فوق ما يلاقونه في سبيل الرحلة إلى البلاد الأجنبية.

*** أدب الرحلة:**

الآداب السنية هي كمال الإنسانية، فيجب على الإنسان الاحتفاظ بها في وطنه كما يحتفظ بها في غير وطنه، ورأينا بعض الحكماء يوجهون إلى الغريب، أو من رام الغربة عناية خاصة، فيؤكدون عليه في الاحتفاظ بالآداب الشريفة، كما قالوا: يا غريباً! كن أديباً.

---

(١) البو: جلد الحوار (ولد الناقة) يحشى ثماماً أو تبناً، فيقرب من أم الفصيل، فتعطف عليه، فتدر.

ومن هذا القبيل وصية عبد الملك بن سعيد الأندلسي لابنه علي بن سعيد عند عزمه على الرحلة إلى بلاد الشرق، تلك الوصية التي يقول فيها:

أودعك الرحمن في غربتك | مرتقباً رحماه في أوبتك
فلا تطل حبل النوى إنني | والله أشتاق إلى طلعتك

وقال:

فليس يدرَى أصل ذي غربة | وإنما تعرف من شيمتك

ونبه لآداب سامية فقال:

وامش الهوينى مظهراً عفة | وابغ رضا الأعين عن هيئتك
وكل ما يفضي لعذر فلا | تجعله في الغربة من إربتك
ولا تجادل حاسداً أبداً | فإنه أدعى إلى هيبتك

وقال:

وانطلق بحيث العيّ مستقبح | واصمت بحيث الخير في سَكْتتك

ومن أدب الراحل: أن ينصف البلد التي ينزل بها، فيذكر محاسنها؛ ويغتبط بما يلاقيه به أهلها من احتفاء ومؤانسة.

ورد تاج الدين بن حمويه السرخسي بلاد المغرب، فسأله سلطان المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن قائلاً: أين هذه البلاد من بلادك الشامية؟ فقال السرخسي: بلادكم حسنة أنيقة، وفيها عيب واحد، فقال السلطان: ما هو؟ قال: أنها تنسي الأوطان.

وممن قاموا على هذا الأدب الجميل العلامة المقري صاحب كتاب «نفح الطيب»؛ فقد نظم في الثناء على دمشق أشعاراً، وتمثل فيها بأشعار،

ومما أنشده: قول شمس الدين الأسدي:

إذا ذكـرت بقـاع الأرض يومـاً ... فقـل سـقياً لجلّـق ثـم رعيـا
وقل في وصفها لا في سواها ... بهـا مـا شئت مـن ديـن ودنيـا

وأختم هذه المحاضرة بأبيات خطرت لي معانيها عندما نزلت دمشق، وإني لست بشاعر، ولكني درست علم العروض، فأستطيع أن أقول كلاماً موزوناً، وإلى حضراتكم هذه الأبيات:

زارهـا بعـد نـوى طـال مـداها ... فـشفى قلبـاً مجـدّاً فـي هواهـا
راح نـشوان ولا راح سـوى ... أن رأى الـشام وحيـاه شـذاها
نظـرة فـي سـاحها تـذكره ... كيف كان العيش يحلو في رُباهـا
مـا شـكا فيهـا اغترابـاً وإذا ... حدثتـه الـنفس بالـشكوى نهانـا
من يحث العِيس في البيـد إلـى ... بـردى يحمـد للعـيس سُـراها
فهنـا قامـت نـوادي فتيـة ... تبلـغ الـنفس بلقيـاهم مناهـا
أدب يزهـو كزهـر بهـج ... أرشفته السحب من خمر نـداها
خلـق لـو نـصح الخـوْدَ بـه ... ناصـح لاتخـذت منـه حِلاهـا
ملـؤوا جلّـق أُنـساً فـأرى ... ليلهـا طلـق المحيـا كـضحاها
شـدّ مـا لاقـوا خطوبـاً فانتـضوا ... مرهفات العزم طعنـاً فـي لهاهـا
عـزة الأمـة فـي نـشء إذا ... نـشبت فـي خطـر كـانوا فـداها
وجناحـا فوزِهـا استمـساكُها ... بهـدى الله وإرهـاف قناهـا
هـي عـين والهـدى إنـسانها ... فـإذا مـا فـسقت لاقـت عماهـا

* * *

رتِّــــل الــــذكر مليــــاً تــــره يغرس الحكمـة أو يـدني جَناهـا
أطلـق الأفكـار مـن أصـفادها فمـضت ترعـى الثريـا وسـهاها

* * *

خضْ علوم الكون أحقاباً وسِرْ في سماها إن تـشأ أو فـي ثراهـا
لا تـرى فـي الـدين إلا مغريـاً بحلاهــا أو مزيحــاً لقــذاها

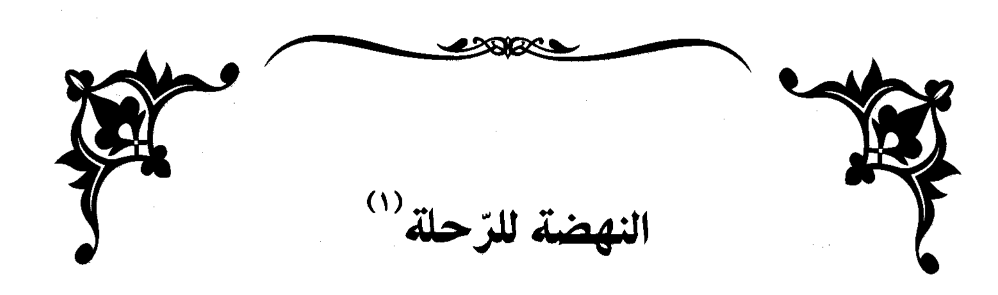
* * *

ذكّرونــا ســلفاً قــاموا علــى سـيرة غـرّاء والـدهر طواهـا
أمــة يــذكي التقــى غيرتهــا مثلمـا يـذكي الندى نـار قِراهـا
شـرف لـو آنسته الـشمس فـي أُفقــه الأعلــى لظنتــه أباهــا

* * *

أوَ يُجــدي مجــدُ أســلاف إذا غرقت أجفان خلـف فـي كراهـا
أمــة تلهــو بــذكرى تالــد عن طريف لم تـرم عهـد صِباها
فابعثوهــا هممــاً تــسمو كمــا سمت الجوزاء تزهو فـي سـناها
مــا الفخــار الحــق إلا نهــضة أحكـم الإيمـان والعلـم عُراهـا

❐❐❐



النهضة للرّحلة[1]

تشهد أساتذة الحكمة وجهابذة الفلسفة، ويزكيهم طول الاختيار والتجربة الصادقة: أن من انتشر بالأمصار، وجاس خلال البلاد، وعاشر طوائف الناس بنباهة قائمة، وضبط جيد، وعقل لا تأخذه سنة الذهول، يكون أبسط ذراعاً، وأطول باعاً في معرفة ما لنوعه البشري من طباع متباينة، وآراء متشعبة، وعوائد مختلفة، وأهواء متفرقة، وأنه أشد تمكناً في التخلق بالأحوال التي تقربه عند أولي الألباب، بحيث لا تصدر أقواله وأفعاله إلا عن إرادة قوية، وروية ثابتة، فما يلفظ من قول إلا صادف مرماه، ولا يكسب عملاً إلا كان حسنه في عيون أهل الفضيلة، وذلك لإحاطة مداركه بأوجه السياسة العامة خُبراً، يعرف حيث يستدل اللين بالحدة، وفي أي حين تستعمل الشدة بدلاً عن الأناة، ولا يخفى عليه في أي المواضع يتعاظم بعزة النفس، وإلى أي حد ينتهي التواضع، وهلمّ جُرّاً.

وضعُ الأشياء مواضعَها المناسبة حتى تلائم فضلاء الناس أمرٌ عسير، لابدّ له من اجتهاد عظيم، لا ينبغ فيه من ينشأ في الحلية، ولا يهدج إلا حول بيته، تجد في الذين يريدون علواً في الأرض، من لا يمشي فيها إلا مرحاً، وهو

---

(١) مجلة «السعادة العظمى التونسية» ـ العدد التاسع من المجلد الأول والتي أصدرها الإمام في تونس عام ١٣٢٢هـ.

يشمخ بأنفه كأنما يريد أن يثقب به الفلك الأطلس، ومتى صوبت نظرك إلى قدمه، وجدتها سائخة في الدرك الأسفل من المهانة.

علّة ذلك: أنه لم يفتح عينه إلا على وجـوه تخـر له جباهها سـجّداً، ولا يخاطب إلا بأفواه تتدفق عليه أشداقها بعبارات التعظيم والإطراء، فيكون ارتياحه لذلك غشاوةً على بصره تحجب عنه ما ارتكز في سريرته من النقائص، ولو امتطى غوارب الأسفار، وهبت به على المواطن التي لا يعبأ فيها إلا بطارف المجد، ولا يعتنى فيها إلا بالكمال الذي يجري مع صاحبه حيث أصاب وأبصر رجالاً بمنزلة الجن في تفنن الأعمال وإبداعها، وآخرين يضاهون طبقة الملأ الأعلى في أخلاقهم المقدسة، لترفعت همته عن القناعة بما تداهنه به عبيد المطامع الواسعة، وتداجيه به ألسنة الذين في قلوبهم مرض النفاق، وطفق يسـعى وراء ما أرشـدته إليه المشـاهدة إرشاداً صحيحاً، وينسج على منوال ما دلته عليه التجارب دلالة واضحة.

ومن الذين يريـدون الحياة الدنيا، من تنبت له الفضاضـة في نفوس بعض الأرذلين بذور الرهبة والإكبار، فينتزع من ذلك قياسـاً يظنه مطرداً، حتى إذا هجس في خاطره استرقاق بعض الضمائر الحرة، أسـرع إلى جرح إحساساتها، ولربما عمد إلى إرهابها بمد يده إلى إنقاذ مقاتلها، ولو مارس مثل هذا أبناء الزمان شعوباً وقبائل، واختبرهم ظهراً وبطناً، لعلم علم اليقين أن من الأفئدة ما لا يستعبده إلا الجميل من القول، ولا يرد جماحه إلا بزمام الرفق والملاطفة.

ومما كان للناس عجباً: أن يحل الرجل بعض النوادي، فيرمي بالكلمة ولا يلقي لها بالاً، فتهتز لها الرؤوس عجباً، وتبتسم لها الثغور اعترافاً بحسن

موقعها، فيأخذ أحد قرنائه في العمل على شاكلتها، فتصاعر له الخدود، وتقطب له الوجوه، كأنما جاء شيئاً فرياً.

النكتة في هذا المثال: اغترار هذا القرين بأن تلك الكلمة إنما أودعت في القوم نشوة بانسجام لفظها، أو إصابة معناها، لا لأنها وردت عليهم مخضبة بصبغة الانتساب إلى مصدر خاص، والمطلع على ما لبني جلدته من المذاهب المتنوعة، والشؤون المتخالفة، المتصرف فيها تصرفاً واسعاً، لا يلدغ من مثل هذا الأغوار الضيقة.

وكأني بمن يترصد مواضع النقد في الكلام، يوحي إلينا: أن من أبناء السبيل من لم يزدهم الاغتراب إلا خوراً في طباعهم، وانحلالاً في عقدة إيمانهم، وتشدقاً في الأقوال مع عجز في الأعمال، غمسوا وجوههم في الخبائث حتى نضب منها ماء الحياة، وانسدل عليها من السماجة والقحة قناع كثيف، ثم تمادوا يبنون معتقداتهم على ما يسمى عندهم: بحرية الفكر، حتى تلفقت لهم ديانة لا شرقية ولا غربية، ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[التوبة: ٣٠]. ولو انـزوت هذه الفئة في حنايا بيوتهم، لكان خيـراً لهم، وأخـف فتنة على السماعين لهم.

فنقول: هذا لا ينصدع به الجدار الذي كنا بصدد إقامته؛ إذ لم نقل: إن السفر النافع هو مبارحة الأوطان كيفما اتفق، والجولان بالمدن والقرى كيفما كان الحال.

السفر لا يربي لصاحبه ملكة بالأدب إلا إذا قارنته فطنة مستيقظة تبحث عن أسرار الاجتماع، وتدقق النظر في تمييز الحسن من المعيب، لو قلت: إن هذه الشرذمة لم تهتد إلى غير المنازل التي تأوي إليها الأراذل، وتسكن إليها

السفلة، استناداً إلى دعاويهم الطائلة، وأفكارهم الخاوية، لم أكن مخطئاً.

أما انحلال عقيدة إيمانهم، فلأن عقائده الحقة إنما بنيت عندهم على هاوية التقليد، فلما هبت عليها أعاصير الشبه، نسفتها من صدورهم نسفاً، فغادرتها قاعاً صفصفاً، فأصبحوا وهو في ريبهم يترددون.

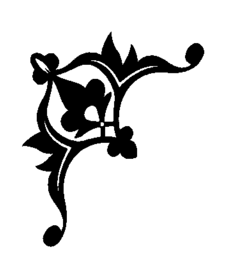
وتلك آيات الكتاب الحكيم التي لم تترك للأدب وجهاً جميلاً إلا كشفت لثامه، ولا شرعة لإعلاء النفوس الطاهرة إلا فتحت أبوابها، وقومت ما نشز من كعوبها، تحثنا على سلوك هذه الجادة حثاً أكيداً، وتنبئنا بغياتها التي هي: الآداب الروحية، والمعارف التي تكمل بها السعادة في الدنيا، ويتوسل بها إلى السعادة في الآخرة. قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾[التوبة: ١٢٢] الآية. والتفقه في الدين كما يصدق على الأحكام التي تتلقى بطريق السمع، يندرج فيه التنبه لفهم الدقائق والأسرار التي تؤخذ من الأمور الحاضرة بواسطة المشاهدة، ولقد كان لعلمائنا العناية الكبرى، والعزيمة الماضية في النهوض للرحلة، والتجلد على اقتحام ما كان فيها من المشاق.

كان السفر قطعة من العذاب، بل العذاب كله، فمن اتخذ سبيله في البحر سرباً، لا يزال ينظر إلى أمواجه نظر المغشي عليه من الموت، كأنما ينفتح له ما بين كل موجتين قبر، وعواصف الرياح تقلبه ذات اليمين وذات الشمال، فيقضي شهوراً، أو ما قدر له، وهو على أعواد مشرف على الهلاك، لا يمسكه عن الوقوع في مهواته إلا خيط أجله، وإن كان السفر براً، فلا تسل عما يحيق بأهله عندما يحمى بهم وطيس الظهيرة، أو يجمد عليهم زمهرير الغدو والآصال، والمخاوف تنسل عليهم من كل فج عميق.

أما الآن، فقد أصبح السفر قطعة من النعيم، فمن لقي من إقامته نصباً، ورام اغتنام الراحة وصفاء البال، بادر له بكل حزم ونشاط، غيرَ متوجس خيفة من تلك الغوائل المزعجة.

وبعد، فهل لإخواننا الكرام أن يسمحوا لنا بأن نعرض عليهم حاجة في أنفسنا ليقضوها، وإن قال قائل منهم: إنها كبرت كلمة تخرج من أفواهنا. وهي: أن نستنهض هممهم، ونستمنح من عواطفهم أن يطرحوا شيئاً من الشغب بالمنازل، والعكوف على الإقامة بها، ويسيروا في الأرض، فينظروا كيف كان عاقبة الذين سعوا جهدهم في خدمة الدين والوطن، ويساهموهم فيما يعودون به على أنفسهم وذوي أخوتهم من المساعي الحميدة، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.




الرحلة الجزائرية(١)

كنت أُسعفت فيما سلف من الزمان بإجراء سياحة في أطراف المملكة الجزائرية، وبقيت النفس مستشرفة إلى إعادتها تارة أخرى إلى مدينة الجزائر نفسها؛ لنكون على بينة من مقدار ما تبلغ إليه حالتها العلمية، وجلية من أمر أخلاق أهلها الغالبة، وعاداتها العامة؛ فإن لسان العيان أفصح من لسان البيان. وما برحت هذه الأمنية تتمثل في الخيال، وتجول في العقل، حتى مكنتنا الفرصة من توطيدها وإبرازها إلى حيز الوجود في شهر رمضان المعظم من هذه السنة.

ولما استقر بنا النوى من حيث ابتدأ، وصقل الإياب مرآة الصدور مما مسها به البعاد من الصدأ، قبضت قبضة من آثار سفرنا هذا، ونبذتها في صحائف هاته المجلة؛ عسى أن يعتبرها مطالعوها الكرام بمثابة فصل انتزعت شذوره من مجلد ضخم في أبناء الأمة الجزائرية من جهة معارفها وأخلاقها.

*** سوق أهراس:**

عقدت العزيمة على الظعن في الساعة الثامنة صباحاً من اليوم الخامس

---

(١) نشرت هذه الرحلة في العددين الأول والثاني من مجلة «السعادة العظمى» التي أصدرها الإمام في تونس عام ١٣٢٢ هـ كما نشرت في كتابه: «السعادة العظمى».

من الشهر المذكور (شهر رمضان سنة ١٣٢٢هـ)[١]، واتخذت سبيلي في البر؛ لأنه أجمل منظراً، وأقل خطراً، فانسحب بنا القطار وهو يطوي البيد طياً، ويجوب من المفاوز الفسيحة مكاناً قصياً، إلى أن نفخ نفخة الغيور الكريم، ثم سار سيراً رويداً، واستوى على محطته الواقعة على جناح من بلد «سوق أهراس»[٢] في الساعة الرابعة مساء.

فهبطت متدلياً إلى المنزل الذي أعدّ لنا، وبعد أن نفضت نقع على ما علق بنا من النصب، تطوفنا في أغلب مناهجها المتسعة، وفسحنا الخاطر في بناءاتها المتناسبة، ولعدم كبر ساحتها يمكن الإحاطة بها في مدة وجيزة. وعند مغيب الشفق توجهت إلى مسجد لاغتنام فضيلة الجماعة، وبعد أن قضيت الصلاة، وتأهبنا للانصراف، قام من الجماعة رجل تلوح على وجهه سمة أهل العلم، ودنا مني، وسلم عليّ سلام ذي المعرفة، ثم مسك بيدي، وتقدم بي إلى محراب المسجد، وأومأ إلي بالجلوس، ثم استدارت الجماعة على هيئة درس، ورأيت في يد أحدهم سفراً، فالتفت إلى ذلك الفاضل، وقلت له: هل لكم درس في هاته الساعة؟ فقال: نعم، درس في التوحيد، ولكن نريد أن نعوضه بمسامرة علمية معكم. فجرت على بساط المسامرة مسائل بعضها في العبادة، وبعضها في غير ذلك، منها: قول بعض المسترشدين: هل كان النبي ﷺ يحلق رأسه أم لا؟ وما حكم عدم الحلق؟

فكان الجواب: أن الآثار الصحيحة تدل على أنه ﷺ لم يحلق لغير نسك، فيحتمل أن يكون ترك الحلق من باب ترك الأخذ بالعرف، والجري

---

(١) ويوافق يوم ١٢ تشرين الثاني ـ لعام ١٩٠٤م.

(٢) سوق أهراس: بلدة على الحدود الجزائرية التونسية.

على ما هو العادة عند قومه، وعلى هذا، فمن جرى عرف قومه بالحلق، كان الأولى في حقه العمل على مقتضاه، ويحتمل أن يكون على وجه التشريع، فيكون سنّة، وهو ما فهمه أبو الوليد الطرطوشي، وابن العربي، وصرّحا بأن حلق الرأس لغير نسك بدعة، والذي يقوى في النظر: أن ترك الحلق هو من باب العادة، فلا يعد الحالق مبتدعاً، وقد يقال: لا تثريب على من ترك حلق رأسه بقصد التأسي بالنبي ﷺ؛ فإن الصحابة والسلف الصالح كانوا يحافظون على الأسوة به في العادات؛ كما يحافظون عليها في السنن، فيعارض بأن الشارع قد أمر بموافقة ما جرى به العرف في غير ما شرّعه.

وبعد أن ختمت المسامرة، وانفضت الجماعة، تجاذبنا مع ذلك المدرس محادثة خاصة، فاستجلينا من خلالها: أنه الشيخ محمد الصالح بن الشايب العدل بالمحكمة القضائية.

ومما جرى في خاتمة المجلس لفظ: «منطاد»، فقلنا: هو الآلة التي تطير في الهواء المسماة بالبالون، وهو لفظ عربي، في «القاموس»[1]: الانطياد: الارتفاع في الهواء صعداً، والمنطاد: البناء المرتفع.

ويوجد في هذه البلد مدرس آخر، وهو الشيخ عبد المجيد، كنت في السنة الفائتة أتيت المسجد الذي يدرس فيه «المختصر الخليلي»، وقد سبقت لنا معرفته بالحاضرة، فرحب بنا، وأحسن لقاءنا، ثم سعى بنا إلى محل الدرس، فجلس عن يسارنا، وشرع في تقريره بطريقة مقتصدة خالية عن التطويل، بعيدة عن الاختصار، وطالعُ الدرس: قول صاحب المختصر: «وعفى عما يعسر»، وبأثر انقضائه عقدنا معهم المسامرة، اشتمل غالبها على تفسير

---

(١) «القاموس المحيط».

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾[التوبة: ١٢٢] الآية. وعلقنا عليها ما حضرنا في فضل التعليم والتعلم.

* تبسة:

وفي الساعة الخامسة صباحاً، سافرت إلى «تبسة»، فوصلنا بعد مسير القطار نحو خمس ساعات، وبعد أن أزحنا بالاستراحة ما سامنا من عناء السفر، خرجنا نتدرج بأنحاء البلاد إلى أن استقصينا غالب مناهجها جولاناً، وألفيناها منفوضة الجراب من آثار التعليم، سوى أن بعض المتخرجين بالجامع الأعظم[1] من أهالي الجريد[2] يجاور بها نحو خمسة أشهر في السنة، يلقي فيها دروساً من الكتب الابتدائية.

وبعد صلاة التراويح، زارنا جماعة من أعيان تجارها لهم عناية أكيدة بالمسائل التي تعرض لهم في أمور التجارة، وهو من أعظم الأدلة على متانة الديانة، والتوقي من الشبهات، منها قول بعضهم: «وما تقولون في رجل اقترض مالاً من عند آخر، واشترى به أشياء تجب فيها الزكاة، وعنده ملك آخر يفي بخلاص ذلك الدين، فهل تجب فيها الزكاة فيما اشتراه بمال القرض إن مرّ عليه الحول، أو لا تجب؛ لأنه مدين؟».

فكان الجواب: أن المدين الذي لا تجب عليه الزكاة هو الذي ليس له من الملك ما يسد به خلة ما عليه من الدين، أما إذا كان مالكاً لما يجعله في مقابلة ذلك الدين، فلا يعد الدين مُسقطاً للزكاة كما في «الموطأ».

---

(١) جامع الزيتونة بتونس.

(٢) الجريد: منطقة بالجنوب الغربي من الجمهورية التونسية، وهي على الحدود الجزائرية، تشتهر بالنخيل، كما أنها أنجبت عدداً من العلماء والأدباء.

* عين البيضاء:

ومن الغد قصدت «عين البيضاء» في الساعة السادسة مساءً، فركبت عربة يجرها أربعة جياد؛ لعدم ارتباط البلدتين بسكة حديد، فوصلنا في الساعة الخامسة صباحاً، وبعد أن أخذنا سنة من النوم، أفاضت علينا من الاستراحة شيئاً يسيراً، وفد علينا بعض أهل العلم، مثل: الشيخ محمد العربي بن قشوط، والشيخ المسعود بن علي، والشيخ أحمد بن ناجي، فاستنارت صدورنا تأنساً بمحاورتهم العلمية في سائر ذلك اليوم.

ومن المسائل التي طرحت بيننا: مسألة الفرق بين الكل والكلية، فقررنا أن قوله ﷺ: «كل ذلك لم يكن» لما قال له ذو اليدين: أقصرت الصلاة يا رسول الله أم نسيت؟ هو من باب الكلية، لا من باب الكل كما يقول بعض المصنفين؛ بدليل قول ذي اليدين: قد كان بعض ذلك يا رسول الله، وقوله في الرواية الأخرى: «ما قصرت الصلاة، وما نسيت». وإن المعنى: كل ذلك لم يكن في ظني، فيكون مطابقاً للواقع والاعتقاد، ولا داعي إلى تأويل الحديث بتوجيه النفي إلى المجموع، بل لا يصح تحريجه على ذلك.

وبعد صلاة التراويح، دعانا الشيخ أحمد بن ناجي إلى المسجد الذي يدرِّس فيه «المختصر الخليلي»، فلما وافينا المسجد، وجدناه غاصاً بتلامذة ذلك الدرس وغيرهم، ففسحوا لنا مقعداً في المحراب، ثم قام رجل منهم، ووزع أجزاء نسخة قرآن على الحاضرين، وهذه عادتهم في كل ليلة جمعة، وبعد ختامها انتدب منا ذلك الشيخ أن نذاكرهم بتقرير بعض الأحاديث، فوقع اختيارنا على حديث: «سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل... إلخ» الحديث، فأملينا بعض ما نعهده في شرحه، وأسبغنا المقال في شأن التوادد

والتعاون عند قوله: «ورجلان تحابا في الله، اجتمعا على ذلك، وافترقا عليه»، وشاهدنا من الحاضرين رغبة مفرطة، وإقبالاً زائداً على تلقي التعاليم الدينية.

* قسنطينة:

بارحت «عين البيضاء» في الساعة السادسة صباحاً، فوصلنا «قسنطينة» بعد مسير الرتل ست ساعات تقريباً، وأعدنا الاستطلاع على بعض معالمها الدينية، وآثارها القديمة والحديثة. بهذه المدينة مدرسة إسلامية معدة لتخريج القضاة والعدول، وثلاثة جوامع تقام فيها الجمعة: الجامع الكبير، والجامع الأخضر، والآخر يسمى: بجامع سيدي الكتاني، وفي هذا الجامع منبر من الرخام مرقوم فيه بيت من الشعر يتضمن اسم مؤسسه، وتاريخ تأسيسه، وهو:

بنى منبراً بالعزّ والنصر صالح — له سبل الخيرات تاريخه رشد[1]

وأسس الجامع الأخضر سنة ١٢٥٦هـ، وبها مكتبة عمومية تحتوي على عدة من الكتب المطبوعة المتداولة. والتقينا بأشهر علمائها الشيخ حمدان بن الونيسي الذي كان زار الحاضرة منذ عهد قريب. والعالم الشيخ أحمد بن الحبيبات، وهو رجل عليه سمة أهل الخير والصلاح، ولما حان وقت صلاة العشاء، ذهبت إلى الجامع الكبير، وبعد انقضاء الصلاة، رأيت جماعة مستديرة في جانب من الجامع، والناس يستبقون نحوها زمراً، فأخبرني بعض من معي بأن للشيخ حمدان درساً في التفسير، فدنوت منه، وأصغيت

(١) كلمة رشد مجموع حروفها بحساب الجمل عند المغاربة يساوي ر٢٠٠ + ش١٠٠٠ + د٤ = ١٢٠٤.

إليه، فإذا هو يقرئ في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾[البقرة: ١٠٦] الآية. بتفسير الخازن.

وبعد أن تم الدرس، تقدم إلينا بعض الطلبة الذين سبقت لهم بنا معرفة مسترشداً عن مسائل، منها: كيف يجمع بين قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[الأنفال: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الأنعام: ١٦٤]؟

فكان الجواب: أن الله لا يؤاخذ أحداً بزلة أحد، وإنما يستحق العقوبة صاحب الذنب، إلا أن الله فرض على كل مسلم رأى منكراً أن يغيره، فإذا لم يفعل ما استطاع من تغييره، وسكت، كان عاصياً، فينخرط مع صاحب الذنب في العقوبة، أحدهما بفعله، والآخر برضاه. قال تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[المائدة: ٧٩].

فالفتنة في الواقع لا تصيب إلا صاحب الذنب، كما قال عمر رضي الله عنه: إن الله لا يعذب العامة بذنب الخاصة، ولكن إذا عملوا المنكر جهاراً، استحقوا العقوبة.

واجتمعنا بأحد الثقات من بلد «المسيلة»، فحكى لنا أن بعض الطلبة في تلك الجهة يعمل في صيامه بقواعد الحساب، وتارة يؤم الناس في صلاة العيد وهو صائم، فقلنا: ورد قوله ﷺ: «فإذا غمّ عليكم، فاقدروا له»، فذهب مطرف بن عبدالله أحدُ التابعين إلى أنّ معنى «اقدروا له»: احسبوا له بحساب المنجمين، واستدل بقوله تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[النحل: ١٦].

والحق أن معنى «اقدروا»: أكملوا العدد ثلاثين، بدليل رواية: «فإن غمّ عليكم، فأكملوا العدد ثلاثين»، ثم إن الشرع مبني على ما تعلمه الجماهير،

وأمر الحساب لا يعرفه إلا قليل من الناس، ولو كان الحساب طريقاً يعتد به في ثبوت الشهر، لعلّمه النبي ﷺ للصحابة كما كانوا يعلمون أوقات الصلوات، ويرد استدلال مطرف: بأن المراد من الآية: الاهتداء في طريق البر والبحر.

يبلغ عدد سكان هذه المدينة نحو ٥٥ ألف نسمة، نصفهم من المسلمين، وأربعة آلاف من اليهود، والباقي من الإفرنج.

*** باتنة:**

ثم التقيت بابن عمنا الشيخ الحسن، فربطنا النية على المرافقة في السفر، فتوجهنا إلى «باتنة»، فوصلنا في الساعة الثامنة مساء. وبعد أن وضعنا أوزار الأتعاب، تجولنا في شوارعها، فإذا هي فسيحة العرض، متناسقة البناء، منورة بالكهرباء، وفي أثناء المطاف قال لي رفيقنا المذكور: إني أعرف هنا رجلاً من أهل العلم والأدب، فقلت: تلك الضالة التي ننشدها في مثل هاته الليلة، اسع بنا إلى أن نروح الخواطر بأسماره. فمضينا حتى انتهينا إلى محل معدّ للتجارة، فوجدنا جماعة جالسين على شكل نصف دائرة، فلما رأونا، انتفضوا قائمين، وعلى وجوههم نضرة البشر والابتهاج، وعلى تحيتهم طلاوة الأدب واللطافة، فكان ذلك براعة استهلال لما ينبغي ملاحظته في ذلك المنتدى، واتفق أن كان من زمرة هؤلاء الفضلاء: الشيخ أحمد البوعوني المشار إله، والشيخ إبراهيم بن السلمي، ولكل منهما فصاحة منطق، وسجية نزاعة للأدب، ولأولهما شعر جيد، فقضينا في السمر مقدار ثلاث ساعات، كانت لتلك الليلة نطاقاً جميلاً. ولما أزمعنا الانصراف، ووقفنا موقف الوداع، تكدرت خواطرهم؛ لانصداع إيوان تلك المؤانسة، وتقطع أسبابها، فألقوا على مسامعنا عبارات يتمشى التحسر والتأسف في مناكبها، فقلنا لهم: العود أحمد، وأنشدنا لهم:

لا تـــأس يـــا قلـــب مـــن وداعٍ فـــإن قلـــب الـــوداع عـــادوا

* **عاصمة الجزائر:**

وفي الساعة الخامسة صباحاً تحرك بنا القطار من «باتنة»، ولم يزل يخبُّ ويضع، ويحمل ويضع، حتى ضرب سواد الليل أطنابه، وفي الساعة الثامنة أشرفنا على عاصمة الجزائر، فتراءت لنا مصابيح أنوارها بمنظر أنيق، وأشكال متناسـقة، وذلك لأن المدينة قائمة على أكمة مرتفعة يبتدئ العمـران من أعلاها، ثم يمتد متدلياً إلى حافة البحر، فيبصر الداخل عند استقبال شوارعها المنورة، وهي طبقات بعضها فوق بعض، رونقاً مليحاً.

وبعد أن اصطفينا محلاً لمقامنا ووضع متاعنا، وتناولنا من الراحة جزءاً يسيراً، تكفأنا نجول في بعض النواحي، فالتقينا بالسيد علي بن الحداد أحد أعيان تجارها الأفاضل، فبسط علينا من الحفاوة والترحاب رداء ضافياً، ولهذا الفاضل محل تجاري يتسامر فيه جماعة من أعيان العلماء والفضلاء، تعارفنا مع بعضهم في تلك الليلة.

ومن الغد تشـرفنا بزيارة الولي الصالح الشـيخ سـيدي عبد الرحمن الثعالبي[1]، وزرنا بإزائه المدرسـة الثعالبية التي تم بناؤها في هذه السـنة، وافتتحت باحتفال رسمي يوم الاثنين ١٧ أكتوبر، وأسست هذه المدرسة لتعليم الوطنيين العلوم العقلية والنقلية، ومنها يتخرج القضاة والعدول. ثم بعد الزوال بساعة، ذهبت إلى الجامع الجديد، ويقال له: الجامع الصغير، فوجدت

---

(١) من كبار علماء الجزائر، ولد فيها عام ١٣٨٦م، وتوفي بها عام ١٤٦٨م. من مؤلفاته: «الجواهر الحسان في تفسير القرآن».

العالم الفاضل الشيخ بوقندورة المفتي الحنفي جالساً في زاوية منه، وحوله جماعة من الطلبة على شكل دائرة يتناوبون سرد «صحيح الإمام البخاري» واحداً بعد واحد، والشيخ مصغ إليهم، فإذا ناب أحدهم خطأ، استرده إلى ما هو الصواب، وهذه عادتهم في سائر أيام رمضان.

وبعد صلاة الظهر تنقلنا إلى الجامع الكبير، فالتقينا بالشيخ عبد الحليم ابن سماية، فغمرنا بنفحات خلقه الناضر، واختلب ألبابنا بفصاحة لسانه الساحر، ولم نلبث معه عند هذه الملاقاة إلا مدة قصيرة لأمر عارض حال بيننا وبين استطالة الجلسة.

وفي ذلك اليوم دعانا السيد علي بن الحداد لزيارة وقت الغروب، وبعد أن تناولنا معه الفطور، توجهنا إلى ضريح الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي، بقصد الحضور بدرس الشيخ علي ابن الحاج موسى، فمكثنا غير بعيد حتى دخل الشيخ وهو محفوف بسكينة ووقار، وجلس بالمحراب، ثم رفع يديه بقراءة الفاتحة قبل افتتاح الدرس، وبعد ذلك أخذ في تقرير مبحث: صفة الكلام من كتاب «الصغرى» للشيخ السنوسي بصوت جهور، فوضّح معناها، ثم أقام عليها الدليل ثانياً، وتعرض في أثناء ذلك إلى جلب مسائل لها تتعلق بالمبحث؛ كتنبيه على أن الحدوث الذي وصف به القرآن في بعض الآيات؛ كقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[الأنبياء: ٢] هو عائد إلى الألفاظ التي نتلوها، لا إلى المعنى الذي هو قائم بالذات العلية.

ومما يدل على صلاح حال هذا الرجل، وصفاء سريرته: أنه ما جرى ذكر النبي ﷺ على لسانه إلا ارتعد صوته، وفاضت دموعه، ثم أقيمت صلاة العشاء، فتقدم ذلك الشيخ وصلى بالجماعة إماماً، وقرأ في الركعة الأولى

سورة القارعة، فلما بلغ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾[القارعة: ١٠] أخذته عبرة شديدة. وسمعته يجهر بالتأمين بعد الفاتحة في الصلاة، فعجبت من مخالفته للرواية المشهورة، وهي عدم تأمين الإمام في الجهر، وبلغني أنه خوطب في ذلك، فأجاب بأنه يختار رواية المدنيين؛ لترجحها بالحديث الصحيح. يريد بذلك قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إذا أمّن الإمام، فأمنوا»، وهو ظاهر في تأمين الإمام في الصلاة الجهرية، والمتمسكون برواية البصريين المشهورة يؤولون «أمن» على: بلغ موضع التأمين؛ كأنجد: إذا بلغ نجداً؛ بدليل حديث: «إذا قال الإمام: ولا الضالين، فقولوا: آمين»، ولعل الشيخ ممن يستبعد ذلك التأويل، ولا يرى الحديث الأخير ظاهر الدلالة على عدم تأمين الإمام.

وعرجنا في إيابنا على محل السيد أحمد بن مراد المعد لبيع الكتب، فالتقينا بالشيخ محمد بوشنب أحد المدرسين بالمدرسة الثعالبية، فأخذنا معه أطراف محاورة أطلعتنا على ماله من النباهة التامة، والتفقه في الأمور الحديثة، زيادة عما له من التفنن. ثم انصرفنا، وصحبنا أحد الفضلاء فذكر لفظ «مجلة»، فاستنبأنا عن معناه لغة، فسقنا إليه عبارة «القاموس»: مجلة ـ بالفتح ـ: الصحيفة فيها الحكمة، أو كل كتاب.

وفي اليوم الثاني من أيام إقامتنا، دعانا الشيخ عبد الحليم بن سماية إلى زورة محله في الساعة الخامسة مساءً، وكان منزله في أقصى المدينة وأعلاها، فصعدنا إليه على السيارة الكهربائية، سارت بنا في خطها الحديدي نحو ٢٠ دقيقة، ووقفت أمام ضريح الولي الكامل الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن الأزهري المتوفي سنة ١٢٠٨هـ، فنزلنا هناك، ووجدنا الشيخ

عبد الحليم في انتظارنا، فذهب بنا إلى داره، وارتقى بنا إلى طبقتها العليا، وتنفست مدة المسامرة، فتواصلت حلقاتها نحو ست ساعات.

جرتنا المناسبة إلى الخوض في شؤون المدرسين، فقلنا: ليس المدرس حقيقة من يلقى المسائل على حسب ما تحويه الأوراق جيدها على رديها من غير أن يعرضها على محك النقد، ويزنها بمعيار النظر؛ فإن من المسائل ما لم تحط التآليف بتحقيقاتها واستخراج خباياها، فقال لي الشيخ: مثال ذلك من فن البيان: الاستخدام؛ فإن البيانيين يعدونه من المحسنات المعنوية، ولا يبينون كيف يعود حسنه إلى المعنى، ثم استرسل في بيان رجوعه إلى المعنى بكلام يشهد لصاحبه بسلامة الذوق، والولوع بالكشف عن أسرار المسائل، دون الاكتفاء بتصوراتها المجردة، ثم استطردنا أن الاستخدام لا يختص بالضمير كما نص عليه الشهاب الخفاجي في «حواشي البيضاوي»، بل يكون بغيره؛ كالاستثناء؛ نحو: أبدأ حديثي ليس بالمنسوخ إلا في الدفاتر، والتمييز نحو:

أختِ الغزالة إشراقاً وملتفتاً

والعطف، وعليه خرج قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾[النساء: ٤٣]. فالمراد من الصلاة: معناها الشرعي، ووقع عطف ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ باعتبار معناها المجازي، وهو المسجد. وأطلعني على صدر مقالة له فصيحة المباني، شريفة الموضوع، مفرغة في قالب الإنشاء العصري، ووعدنا بإرسالها عند استكمالها.

وكان هذا الفاضل زار الحاضرة قديماً، وأقام بها نحو ثمانية أيام أخذ فيها «المقولات العشر» تدريساً عن الشيخ محمد بن عيسى الجزائري

ـ رحمه الله ـ، والتقينا بالعالم الشهير الشيخ عبد القادر المجاوي بعد شهودنا مجلس درسه «جوهرة التوحيد» بمسجد سيدي محمد الشريف، فحيانا بتحيات أكدت للتعارف القديم ميثاقاً، وصبّت علينا شيمه الشريفة من المؤانسة كأساً دهاقاً، وحينما عزمنا على الانصراف، أخذ علينا عهداً على تجديد الزيارة في الليلة القابلة، فعقبنا ذلك العهد بالوفاء، وبعد صلاة التراويح ذهب الشيخ ونحن في صحبته إلى جامع الشريف، وأقرأ به درسه الاعتيادي من «الأربعين النووية» في مجمع عظيم من الخاصة والعامة، وكان حديث تلك الليلة: «الدين النصيحة»، ثم عدنا إلى السمر، ومعنا جماعة من التلامذة.

نستحسن من دروس هذا الشيخ اقتصاره في كل فن على تقرير مسائله التي يشملها موضوعه، وعدم خلط بعضها ببعض. وقد كنت ـ عافاكم الله ـ ممن ابتلي درسه باستجلاب المسائل المختلفة الفنون، وأتوكأ في ذلك على أدنى مناسبة، حتى أفضى الأمر إلى أن لا أتجاوز في الدرس شطر بيت من ألفية ابن مالك ـ مثلاً ـ، ثم أدركت أنها طريقة منحرفة المزاج، عقيمة عن الإنتاج، ونرجو أن تكون توبتنا من سلوكها توبة نصوحاً.

ولهذا الشيخ أيضاً خلق عظيم نحمده عليه، وهو سلوكه في معاملة التلامذة طريقاً وسطاً، لا ينحط عن مكانة عزة النفس، ولا يرتفع عن ساحة التواضع، تحمله عواطف النسب العلمي على العناية بشؤونهم، وبذل الوسع في قضاء مآربهم، ويصده علو الهمة عن مجاراتهم فيما يزري بخطته الشريفة.

أأغرسه عزاً وأجنيه ذلة ... إذاً فاتباع الجهل قد كان أحزما

ولعل هذا الخلق الذي لا ينبل الرجل إلا به، هو الذي غرس له في قلوب الجمهور مودة واحتراماً. وغالب القضاة وعدول المملكة الجزائرية

تخرجوا على يديه؛ لأنه كان درّس بقسنطينة أيضاً سنين متطاولة.

وشهدت مجلس ختم العالم الفاضل الشيخ السعيد لصغرى السنوسي بجامع سيدي رمضان، بحضرة جماعة من العلماء، وجمّ غفير من غيرهم، فقرع الأسماع بمواعظ حسنة، ونصائح مفيدة، ودبجها بمسائل شتى من النحو والبيان والبديع، وساق في أثنائها أحاديث فضل التسمية باسمه ﷺ «محمد».

وفي صبيحة تلك الليلة اجتمعنا ببعض المنتسبين للعلم، فسألنا عن رتبة تلك الأحاديث، فقلنا: قد نقلها جماعة من المحدثين، ولم يتعقبوها بشيء، وإلى ذلك استند الشيخ في إيرادها، ثم ذكرنا له ما نعهده لملاّ علي قاري في شـأنها، وهو: من علامات وضع الحديث مناقضته لما جاءت به الشريعة مناقضة ظاهرة، ومن ذلك أحاديث من اسمه محمد أو أحمد، وإن كل من تسمّى بهذا الاسم لم يدخل النار، فهذا يناقض ما علم من الدين: أن النار لا يجار منها بالأسماء والألقاب، وإنما النجاة منها بالإيمان والأعمال الصالحة.

واجتمعنا بالعالم البارع الشيخ محمد بن مصطفى خوجة بدكان السيد أحمد بن مراد، فمد علينا من الملاطفة رواقاً، وفتح علينا رياض أنس كانت مغلقة أبوابها إغلاقاً، فنظم في سلك المسامرة فرائد، وأنشدنا من بنات أفكاره قلائد، ثم ختمنا بالتعريج على ما هو الأحسـن في طرق التعليم، فأبديـت ما نراه الطريقة المثلى في هذا الموضوع، خلاصته: هو أن الرتبة الابتدائية والرتبة الوسطى، ينبغي للمعلّم الاقتصار فيها على تقرير المسائل مجردة عن ذكر الخلافات، والأدلة الطويلة الذيل، حتى إذا اقتصر المتعلم على إحدى

الرتبتين، أو عاقته دون الترقي لما بعدها عوائق، فقد نول ما فيه كفاية من غير أن يخفق مدة من حياته فيما لا فائدة فيه لمثله.

أما الرتبة العليا التي لا يقصدها إلا من طمحت همته إلى أن يكون عالماً معلّماً، فلابد فيها من تتبع عروق المسائل، واستقصاء آثارها، وحث مطية الفكر في أنجادها وأغوارها، على شريطة أن لا يلتفت المعلم إلى المباحث المتعلقة بعبارات المصنفين؛ فإنها داعية إلى خلط الفنون بعضها ببعض من غير كبير فائدة، والاشتغال بتحرير أصل من أصول العلم وصناعتها أفيد للطالب وأجدى، ويستغنى في تقوية الملكة وتشحيذ الذهن بالمباحث المتعلقة بنفس المسائل.

ودعانا السيد مصطفى بن الأكحل إلى منزله، وهو من أفاضل القوم، لا يحل بالبلد غريب، ولاسيما إن كان من أهل العلم، إلا وأكرم مثواه، وأحسن ضيافته، وحضر تلك المأدبة جماعة من أعيان العلماء؛ مثل: العالم الفاضل الشيخ بوقندورة، والشيخ عبد الحليم، والشيخ محمد بن مصطفى خوجة، فنضحوا بماء لطافتهم عن صدورنا وحشة الاغتراب، وتساقط من بين مذكراتهم العلمية ما تلذه عيون الألباب.

وجرت بمناسبة قول بعض الجماعة: أنا لا آكل لحماً، وقد آكل حوتاً، مسألة: من حلف أن لا يأكل لحماً هل يحنث بأكل الحوت أم لا؟ فقال أولئك السادة: لا يحنث؛ رعاية للعرف بمقتضى المذهب المتمسكين به مذهب أبي حنيفة، فسقنا نحن ما نقله ابن كمال باشا في «تفسيره» من أن سفيان الثوري أنكر ذلك على أبي حنيفة محتجاً بآية: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[فاطر: ١٢].

فقال أبو حنيفة لرجل: اسأل سفيان عمن حلف لا يجلس على بساط، وجلس على الأرض، هل يحنث أم لا؟ فإن قال: لا يحنث، فقل له: قال تعالى: ﴿ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾[نوح: ١٩]، فلما سأله وأجابه بعدم الحنث، وأورد عليه الآية، علم أن ذلك تلقين من أبي حنيفة. وذهب المالكية إلى الحنث؛ تمسكاً بالآية، وهو عند تحقق العرف بعدم تسمية الحوت لحماً مشكل لقاعدة: أن العرف مقدم على القصد اللغوي، ولم يحضرني حينئذ إلا أنه فرع مشهور بني على قول ضعيف، وهو أن المقصد اللغوي يقدم على العرف، أو العمل بقاعدة: أن الحنث يقع بأقل الوجوه؛ بخلاف البر، فقاعدته: أنه لا يقع إلا بأكمل الوجوه، فمن حلف ليسافر، لا يبر في يمينه إلا إذا سافر مسافة القصر، وإن سمّي ما دونها سفراً عرفاً ولغة، ومن حلف لا يسافر، حنث بسفره دون مسافة القصر.

وبعد طي بساط ذلك المجلس، ذهبنا إلى المسجد الذي أسسه السيد مصطفى بن الأكحل، فشهدنا مجلس ختم الشيخ عبد الحليم لكتاب في التوحيد لا أتذكر الآن ما هو؛ لأن الشيخ إنما قرر ما يتعلق بسورة الإخلاص، وبيّن كيف ينتزع منها العقائد الدينية بطريقة استحسنتها جداً، حتى إني كنت من المحرضين له على إقراء درس في التفسير زيادة عما هو بصدد إقرائه مثل درس السعد على «التلخيص».

ثم عدنا إلى السمر، وتناولنا أطراف البحث في مسائل، منها: مسألة اشتراط الولي لعقد نكاح المرأة، فأفادنا الشيخ محمد بن مصطفى خوجة: أن أبا يوسف، ومحمد بن الحسن يقولان باشتراط الولي، وهو قول عامة الفقهاء، وأسند ذلك إلى «عقود الجواهر المنيفة»، ثم مال بنا الكلام إلى أن

الواجب على العلماء أن يسعوا في بيان أحكام الشريعة، وبث تعاليمها في صدور الناس، وإن لم يسألوا عن ذلك.

فنقل لنا ذلك الشيخ عن ابن العربي ما يؤيد هذا، وهو أن المسائل الدينية يجب على العالم تعليمها، ولو بدون سؤال، بخلاف غيرها، فلا يطالب بتعليمها إلا عند السؤال.

وأخذ الجماعة في استحسان السفر، وبيان فوائد الرحلة، فقلنا: تأييد ذلك: أن ابن العربي بعد أن حقق إباحة الاستياك للصائم بالنقل عن القاضي سيف الدين في كتاب «العارضة»، قال: ويوم حصلت هذه المسألة، قلت: الحمد لله الذي أفادني هذه في الرحلة، وعلمت أني لو لم أحصل غيرها، لكفتني.

وقال في «الأحكام» عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾[الأعراف: ١٨٩]: اختلف علماؤنا في راكب البحر، هل حكمه حكم الصحيح، أو الحامل؟ فقال ابن قاسم: حكمه حكم الصحيح، وقال الأشهب: حكمه حكم الحامل إذا بلغت ستة أشهر، وابن القاسم لم يركب البحر، ولو عاين ما يشاهده المسافر فيه، لكان رأيه كرأي أشهب.

والتقينا بالفاضل البارع السيد يوسف بن سماية، فوقفنا معه موقف التسليم والوداع أمداً لم يتجاوز ٢٠ دقيقة، وقد لاح لنا على خطاباته ملاطفة جميلة تشف عن جودة فكرة، وحلاوة في الأخلاق.

استطلع رأينا في تفسير قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾[البقرة: ١٨٥] على معنى: ابتدئ فيه نزول القرآن، فقلنا: ذلك التفسير صحيح، ونسبه المفسرون إلى ابن إسحاق، والأحاديث الدالّة على

إنزال القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا، وإن كانت صحيحة، لا يتعين حمل الآية على معناها.

ودفعتنا المناسبة إلى الكلام على العمل بالحديث الضعيف، فقلنا: قال الفقهاء: إن الحديث الضعيف لا يعمل به في أحكام الحلال والحرام مطلقاً، ويعمل به في فضائل الأعمال بثلاثة شـروط: أن لا يكون شديد الضعف، ولا يعتقد العامة نبوته؛ لئلا ينسب إلى النبي ﷺ ما لم يقله، وأن يتدرج بمعناه تحت قاعدة كلية من قواعد الشريعة.

وذهب أبو بكر بن العربي إلى أن الحديث الضعيف لا يعمل به مطلقاً.

وسامرنا بدكان السيد علي بن الحداد الشيخ مصطفى بن الطالب أحد علماء تلمسان، والمتولي خطة الفتوى بصور الغزلان[1]، وكان له ميل شديد إلى المباحثات العلمية، ويحب التطلع على علل المسائل، وربما هجم على إبداء ما يلوح له من ذلك.

حاول في أثناء المذاكرة أن يفرق بين الكفارة والحدِّ في عرف الشريعة؛ بأن الكفارة تستعمل في عقوبة ما هو حق لله، والحد يطلق على عقوبة ما فيه حق لمخلوق، فنازعه بعض المحاضرين بأن عقوبة الزنى تقع على ما هو حق لله، وتسمى حداً، فقلنا: إن كثيراً من الفقهاء يطلقون القول بأن الحق في الزنى لله، ويبنون على هذا: أنه إن تاب، برئت ذمته، والتحقيق أن لأقارب المرأة المزني بها في ذلك حق أيضاً؛ لما يلحقهم من العار وهتك الحرمة، وذلك مما لا تغفره التوبة، كسائر الحقوق المتعلقة بالمخلوقين، والأمثل أن يقال: إن الحدود تستعمل في العقوبات الخالصة، والكفارة يغلب إطلاقها

(١) بلدة بالجزائر.

على الطاعات التي تقع في مقابلة جناية.

وانجر بنا البحث إلى مسألة تقديم الكفارة على الحنث، وذكر الخلاف في إجزائها، فقلنا: ذهب أبو حنيفة إلى أن سبب الكفارة هو الحنث، وعليه فلا يجزي التكفير قبله، ورأى أن الكفارة بدل عن البر، فلزم أن يكون موضعها عدم المبدل منه، وذهب مالك إلى أن سبب الكفارة هو اليمين، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾[المائدة: ٨٩].

فإن المعاني إنما تضاف إلى أسبابها، وعليه، فيجزي التكفير، ولا يلزم عليه تقدم الحكم على شرطه؛ لأن الحنث إنما هو شرط في انحتام الكفارة من غير تخيير، لا شرط في أصل وجوبها، وحدثنا الشيخ مصطفى المذكور: أنه كان قرر درساً بمحضر بعض الإفرنج، وقال في خلاله: إن العرب هم سكان الحاضرة وإن كانوا أعاجم، والأعراب هم سكان البادية، وإن لم يكونوا من العرب، فعارضه بعض الحاضرين بأن المتعارف: أن العرب اسم الجيل المخصوص، سواء سكنوا البادية، أو الحاضرة، والأعراب اسم لمن يسكن البادية من ذلك الجيل، فطالعنا وقتئذ بعض كتب في اللغة، فعثرنا فيها على شبهة فيما قرره الشيخ في «المصباح»: وأما الأعراب ـ بالفتح ـ، فأهل البدو من العرب، الواحد أعرابي، وزاد الأزهري فقال: سواء كان من العرب، أو من مواليهم، قال: فمن نزل البادية، وجاور البادين وظعن بظعنهم، فهم أعراب، ومن نزل بلاد الريف، واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي إلى العرب، فهم عرب، وإن لم يكونوا فصحاء، وذكر حديث: «أحب العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي».

فقال الشيخ مصطفى: هذا الحديث تكلم فيه. بيان ما أشار إليه: أن

الحديث رواه البيهقي في «الشعب»، والحاكم في «المستدرك»، والطبراني في «معجمه»، وكلهم من طريق يحيى بن بريد، وهو ممن يروي المقلوبات، وضعفه أحمد وغيره، وتابع يحيى على رواية هذا الحديث محمد بن الفضل ابن عطية، ومحمد بن الفضل متفق على ضعفه واتهامه بالكذب، فلا يصح للمتابعات، ولكن للحديث شاهد رواه الطبراني في «معجمه الأوسط» من رواية شبل بن العلا عن أبيه عن جده، عن أبي هريرة، مرفوعاً: «أنا عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي». وهذا الحديث ضعيف فقط، لا صحيح، ولا موضوع، ولا يثبت به أن كلام أهل الجنة عربي؛ إذ الأحاديث الضعيفة لا يكتفى بها في العلميات.

وزرنا المكتبة العمومية، فرأينا فيها عدة من الكتب الغريبة؛ مثل: «القبس على موطأ مالك بن أنس»، «وترتيب المسالك على موطأ مالك»، هجت أسفاً على أني لم أتمكن من زيارتها إلا في آخر يوم من أيام إقامتنا، حتى إني لم أستوف مطالعة أنموذج الكتب بتمامه[1].

---

(١) لم ينشر الإمام تتمة الرحلة في مجلة «السعادة العظمى»؛ لتوقفها عن الصدور، ولم نعثر عليها في مجلات أخرى، أو بين أوراقه.

ومن خلال مطالعاتي لمجلدات مجلة «الهداية الإسلامية» وجدت في العدد السابع من المجلد الحادي عشر (ص٥٨٢) وتحت عنوان «الشيخ الأخضري صاحب السلم والجوهر المكنون» ما كتبه الإمام: هو من علماء بلاد الجزائر، ولد سنة عشرين وتسعمائة وبلغ من السن اثنين وثلاثين سنة بالوقوف على التاريخ معاينة، وأظنه توفي سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة، وقبره اليوم مشهور ويُزار في «ينطيوس» وهي قرية قريبة من بلدة بسكرة من عمل الجزائر.

اطلعنا على هذا في نسخة محفوظة من شرح الشيخ محمد بن محمد بن علي بن =

= موسى الشغري الجزائري للجوهر المكنون. وقد وقفت على قبره في القرية المذكورة في بعض رحلاتي إلى بلاد الجزائر.

ملاحظة: هذا الشرح يؤكد أن الإمام محمد الخضر حسين زار الجزائر عدة مرات، وأنه زار ولاية «بسكرة» ومدينة «طولقة» التابعة لها وهي مكان ولادة والده الحسين وجده علي بن عمر. ولكن تتمة الرحلة ـ للأسف ـ لم نقع عليها.

ذكرت هذه الملاحظة رداً على همسات في الجزائر. لماذا لم يقم الإمام بزيارة موطن آبائه وأجداده!





خلاصة الرّحلة الشرقية[1]

اقترح عليّ جماعة من الفضلاء أن أحرر خلاصة في آثار رحلتنا الشرقية، فعطفت عنان القلم لمساعفة اقتراحهم، بعد أن رسمت له الوجهة العلمية والأدبية سبيلاً لا يحيد عن السير في مناكبها، ولئن لم يلتقط الناظر منها درة علمية فائقة، فإنها لا تخلو من أن تنبسط له بملحة أدبية رائقة، وإليك التحرير:

سنح لي باعث على الرحلة إلى بلاد الشام، وهو زيارة الأهل؛ وفاء بحق صلة الرحم، فامتطيت الباخرة يوم الخميس الرابع من شعبان سنة ١٣٣٠هـ، وعندما أقلعت من مرساها، وأخذت المباني التونسية تتوارى عن أبصارنا، أخذ الحنو إلى الوطن يتزايد، وحرّ الأسف لمفارقة الأصحاب يتصاعد، حتى أصغيت إلى نفسي وهي تخاطب رائد السفينة بقولها:

حادي سفينتنا اطْرَحْ من حمولتها ... زاد الوقود فما في طرحه خطر

وخذْ إذا خمدت أنفاس مِرْجَلها ... من لوعة البين مقباساً فتستعر

---

(١) نشرت هذه الرحلة في جريدة «الزهرة» التونسية بين العدد المؤرخ في ١٧ربيع الثاني ١٣١٣هـ ـ الموافق ٢٥ مارس آذار ١٩١٣م ـ والعدد المؤرخ في ٢٠ جمادى الأولى ١٣٣١هـ ـ الموافق ٢٦ أفريل نيسان ١٩١٣م. كما نشرت في مجلة «الحقائق» بدمشق ـ الأجزاء: العاشر والحادي عشر والثاني عشر من المجلد الثالث.

وإني لأدرك في مثل هذا الموطن دقة نظر إمام الحرمين حين قيل له: لم كان السفر قطعة من العذاب؟ فأجاب على الفور بقوله: لأن فيه فراق الأحبة.

*** الوصول إلى مالطة:**

رست الباخرة على جزيرة «مالطة» عند مغرب يوم الجمعة، ولم نر من فائدة في نزولنا والليل قد ضرب أطنابه، قضينا ليلتنا على متن البحر، وانحدرنا صباحاً إلى المدينة التي هي مقر حكومتها، وتسمى: «فاليتا»[1]، فتجولنا في مناهجها المتناسقة، وشهدنا من خطاباتهم كيف تنحط العربية، وتندرس أطلال فصاحتها بين الأمة التي تجهل مكانتها، وتزهد في تعاليمها إلى أن تلتحم بأخلاط من لغة أخرى؛ فإن لغة أهل هذه الجزيرة عربية محرفة، وأكثر ما يتخللها قطع من اللغة الطليانية، وإنما انساقت إليها العربية حتى استولى عليها أبو الغرانيق محمد بن الأغلب سنة ٢٥٥هـ.

ويشعرك بانتشار العربية وآدابها بينهم لذلك العهد: ما قصه المؤرخون من أن ملك مالطة صنع له بعض مهندسي بلده تمثال جارية يتعرف بها أوقات الصلاة، وكانت ترمي ببنادق على الصنج «قصاع الآبنوس»، فقال أبو القاسم ابن رمضان المالطي أحدُ شعرائها لعبدالله بن السمنطي المالطي، وكانت له براعة في صناعة الشعر: أجز هذا المصراع:

«جاريـــة ترمـــي الـــصنج» بهـــا القلـــوب تبـــتهج

فقال له:

---

(١) عاصمة مالطة.

كـــأن مــــن أحكمهـــا إلـــى الـــسماء قـــد عـــرج
وطـــالع الأفـــلاك عـــن ســـرّ البـــروج والـــدرج

ثم عدنا إلى الباخرة حيث أزف رحيلها، وجعلت أنظر إلى زوارقها المزخرفة وهي تحوم حولنا واردة وصادرة، فوقع بصري على زورق يطوف به على جوانب السفينة سائل مقعد، فأراني إحدى رجليه نحيفة ملتوية، فقذفت له مسكوكاً، فالتقطه وهو يقول: بالسلامة بالسلامة. وحيث لم يتعرض لي قبل هذا سائل في زروق قلت:

عهدت الذي يسعى على متن زورق إلى الرزق يدلي نحوه شرك الصيد
وذا قانص في اليمّ يرمي إلى العلا حبالـة أقـوال فتظفـر بالقـصد

*** السفينة في مرسى الإسكندرية:**

بارحنا «مالطة» عند الزوال يوم السبت، واسترسلت السفينة على بحر صامت، ما عدا نسمات لينة تخطر علينا غسق الليل وأطراف النهار، حتى قدمت على مرسى الإسكندرية ضحوة يوم الأربعاء، فنزلنا منزلاً ألقينا فيه رحلنا، وبعد أن طفئت حرارة الهاجرة، خرجت صحبة رفيق يعرف شعاب المدينة، إلى أن وافينا باب مسجد، فجزته لأداء صلاة الظهر، وإثر ما قضيت الصلاة، جلس إمام المسجد مستنداً إلى أسطوانة، ودنا له طائفة من الناس، فقرأ لهم نبذة من كتاب «الشفا» لعياض، مع بعض بيانات تدل على أنه ذو حظ من علوم الدين، ثم حان وقت العصر، وبعد أن انصرف من صلاتها، ألقى عليّ السلام متعرفاً لأثري، وعرض عليّ المبيت بمنزله في طرف البلد، فاعتذرت له بقصر مدة الإقامة، وقصد الاستطلاع على مناظر البلد ومعاهدها العلمية.

امتطيت عربة أتت بنا على مكتبتها القائمة بإزاء إدارة البلدية، فطالعت صحائف متفرقة من نموذج كتبها، ولم يقع بصري فيما طالعته على كتاب نادر يستحق أن نذكره، ثم اجتزنا إلى متحف يقال له: «عمود السواري» يحتوي على تماثيل عتيقة، وعلى عمود قائم ذكر لنا الدليل المكلف باستطلاع الغرباء على المتحف أن ارتفاعه يبلغ ستاً وأربعين ذراعاً، وذكر المقريزي في «الخطط»: أن ارتفاعه سبعون ذراعاً، وقال المقريزي أيضاً: ويذكر أن هذا العمود من جملة أعمدة كانت تحمل رواق أرسطاطاليس الذي كان يدرس به الحكمة.

وقصدنا لزيارة مقام الشيخ الأبوصيري، ثم مقام أستاذه أبي العباس المرسي، ويتجمع حول هذين المقامين عدد وافر من الطائفة الظاهرة في زي المجاذيب.

التقينا بالسيد حسن بن عياد من أهالي «جربة» القاطنين بتلك المدينة، وذهب بنا إلى ناد حافل يقال له: «المنشية»، فقضينا به جانباً من الليل في أسمار مؤنسة، واستطلاع على مجامع متنوعة، وهيئات من الملابس المختلفة؛ فإن هذا النادي يأوي إليه السائحون من بلاد الشرق، ولا تتجافى عنه الطبقة العالية من الأهالي، ومما يذود عن جفنك الكرى هنا: أن باعة الجرائد يخترقون الصفوف والمجامع، وهم يصرخون بأسمائها، وأيدي القوم تتلقفها واحدة عقب واحدة.

*** رسالة «الدعوة إلى الإصلاح»:**

وأبثّ الأسف هنا حيث لم يتمهد لنا التعارف بفضيلة العالم الأستاذ الشيخ السيد عبد الفتاح المكاوي أحد العلماء بمشيخة الإسكندرية قبل مقدمي

هذا، حتى أحظى بسعادة لقائه؛ فإنه بعث لي رسالة بعد، وأنا حينئذ بدمشق، خاطبني فيها على أن أوجه له بنسخة من رسالتنا: «الدعوة إلى الإصلاح»، فما لبثت أن قدمتها لفضيلته بواسطة البريد، فطالعها بعين الكرم، وتفضل ـ حفظه الله ـ بالكتاب الذي قصرت اليراعة أن تبسط باعها بما يستوجبه من الشكر، ونصه بعد الديباجة:

«فقد تلقيت خطابك السامي، ورسالتك الداعية إلى الإصلاح والخير والفلاح، وبمطالعتها علمت أن الإسلام لم يعدم أنصاراً، ولم يزل للإرشاد دعامة هي الخير الدعامات، قلتَ فبرهنت، ودعوت فسددت، وأحييت سنّة الخلفاء والمصلحين، فربطت بهذا آخر العالم الإسلامي بأوله، ولا يسعني إلا تهنئة الحاضرة التونسية بك، بل الأقطار الإفريقية، بل الممالك الشرقية، وإني وايم الله! لقد امتلأ قلبي سروراً، وأفعم فرحاً من تعاليم جامع الزيتونة؛ حيث انتخبت مفكراً وعالماً دينياً بصيراً مثلك، ولقد ضاقت عليَّ سبل الشكران، أأشكرك على ما قدمته للإسلام والمسلمين من براهينك الساطعة، وحججك الدامغة؟ أم أشكرك على ما أهديته للحركة الفكرية العصرية مما تلقته البصائر بالإجلال والإعظام؟ أو على عنايتك الكبرى بتبديد الخرافات التي علقت بأفئدة سواد كثير من المسلمين؟ أو على شجاعتك المتناهية في إزالة سحب الجهالات التي أخرتنا إلى الوراء أميالاً ليست بقليلة؟ أو أشكرك على إهدائك لي ما أعده ذكراً حسناً، وأثراً خالداً؟».

*** الطريق إلى القاهرة:**

باكرنا يوم الخميس إلى القطار المصـري، فانطلق يهرع ما بين أشجار وأنهار، ومزارع وقرى، منها: دمنهور، وطنطا، وبنها العسل. وأسماء الأماكن

التي يقف عندها القطار مرسومة بالقلم العربي، وباعة الصحف والمتكففون يلجون عربات الرتل، ويتحولون فيها المسافة البعيدة مجاناً.

*** زيارة مساجد ومعاهد القاهرة:**

وصلنا إلى مصر، وتبوأت بيتاً في قصر يسمّى: «الكلوب المصري»، ثم هويت من المنزل يرافقني السيد محمد القديدي القيرواني، ودرجنا إلى مسجد سيدنا الحسين ﷺ، وفيه منفذ للمكان الذي اشتهر أنه مشهد رأسه الشريف، ورأيت زوّار هذا المسجد وزائراته كيف يزدحمون على بابه ما بين وارد وصادر، وللعلماء بالروايات مقال في هذا المشهد الحافل، فإن منهم من يقول: إن مدفن رأس الحسين ﷺ بعسقلان[1]، ولعلنا نقص أثر هذا المطلب في مقام آخر.

ثم توجهت إلى زيارة المعهد العلمي الشهير بالأزهر، ولما وافيته، نهض لي زمرة من التلامذة تونسيون وجزائريون، وكان بعضهم ممن تقدم له الحضور بالدروس التي نلقيها بالمعهد الزيتوني، فطافوا بنا في زوايا الجامع وحواشيه، ثم جلسنا برواق المغاربة مدة وجيزة، وأزمعت على الإياب تخلصاً من متاعب السفر، فالتمسوا مني العودة لزيارتهم مساء. وجنح بنا السبيل إلى منزل صديقنا السيد الشريف بن حمودة، فلما وقع بصره على رؤيتنا، انطلق لسانه بعبارات الترحاب والإعجاب، فلبثنا لديه ساعة أنس خففت عنا معظم ما مسنا من النصب، ثم آويت إلى محل الإقامة.

اكتفيت بحظ من الراحة يسير، وانصرفت لإنجاز الموعد الذي أخذه

---

(١) مدينة على الساحل الفلسطيني.

مني التلامذة، فقضينا أمداً في محاورة علمية بحسب ما تجذب إليه المناسبة، ثم ذهبنا نتجول في المناهج والأسواق، ومن رفقائنا: الشيخ محمد الصالح الشواشي، والسيد محمود بن رشيد التونسي، حيث برزنا إلى جسر ممدود على وادي النيل، وعبرناه إلى حديقة ناضرة، فذكرت قول صلاح الدين الصفدي:

رأيت في أرض مصر مذ حللت بها عجائباً ما رآها النـاس فـي جيـلِ
تسودّ في عيني الـدنيا فلـم أرهـا تبيضّ إلا إذا ما كنـت فـي النيـل

وقلت:

عبرت على جسرٍ أرى النيل تحتـه إلى روضة فاشتقت منْهَلَ زغوانِ[1]
صراط وفردوس وسلسال كـوثرٍ وما قيظُ أشواقي سوى وهج نيرانِ

* صلاة الجمعة بالأزهر:

شهدت صلاة الجمعة بالجامع الأزهر، والخطيب من أبناء الشيخ السقا صاحب الخطب الشهيرة، فكان موضوع الخطبة: فضل ليلة النصف من شعبان، ولكنه ألقاها بصوت جهير في هيئة مرتجل دون أن يمسك في يده ورقة، وحينما شرع في دعاء الخطبة الثانية، أخذ ينزل من موقفه الأعلى، فانتهى من الدعاء عند الدرجة السفلى من المنبر.

أجبنا دعوة الشيخ محمد عبان القيرواني، وناولنا كؤوساً من الشاهي، وهو يلتمس العذر؛ كأنه يعد نفسه مقصراً في الضيافة، فأنشدته قول الصاحب ابن عباد:

---

(١) نهر زغوان في تونس.

نسائلكم هل من قرى لنزيلكم بملء جفون لا بملء جفان

*** مسامرات علمية:**

التقينا مساء هذا اليوم بأساتذة أزهريين، أحدهم: الشيخ الزنتاتي من طرابلس الغرب، وأتى في المذاكرة الحديث عن الشيخ ابن عرفة، فقال ذلك الأستاذ: إن الفخر به لأهل طرابلس؛ لأن قبيلة الشيخ لذلك العهد كانت من ملحقات طرابلس، فقلت له: إنما يعود فخره إلى التونسيين؛ لأن نشأته الأدبية وحياته العلمية إنما كانت في تونس.

*** الصلاعة:**

وجرى في المحادثة لفظة: «صلاعة» على معنى: الاستراحة من التعليم، فقلنا: هي كلمة في أصلها عربية، قال في «القاموس»: صِلاع الشمس؛ ككتاب: حرّها. وأيام الاستراحة هي أوقات الحَرّ غالباً. والكلمة الشائعة في معنى الاستراحة من التعليم عند كثير من أهل الجزائر، ولاسيما المتخرجين من المدارس هي لفظ: «فكّانس»، وهي حرف فرنسوي.

*** إنا أنزلناه في ليلة مباركة:**

دعانا الشيخ إبراهيم صمادح أحد المجاورين بالأزهر للسمر عنده ليلة يوم السبت، فقضينا نصف هذه الليلة في أسمار علمية، ومحاورات أدبية، ممن جاذبنا أطرافها: الشيخ أحمد أمين الشنقيطي أحد العلماء الذين تجولوا في بلاد الشام والحجاز، والشيخ عبد المعطي السقا أحد المدرسين بالأزهر. وفيما طرح من المباحث بمناسبة خطبة ذلك اليوم: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾[الدخان: ٣].

حيث ساق بعض الخطباء الآية في فضائل ليلة النصف من شعبان كما

ينقله بعض المفسرين عن عكرمة، وأوردنا في هذه المذاكرة إنكار أبي بكر ابن العربي لهذا التفسير، وتحقيقه: أن المراد من الليلة المباركة: ليلة القدر، وهي التي يفرق فيها كل أمر حكيم.

واتصل الكلام بالبحث في البدعة، وسقنا تحرير أبي إسحاق الشاطبي في ضابطها، وهو أن يكون السبب الذي استند إليه العامل قائماً زمن شرع الأحكام، ويسكت عنه الشرع، ولا يقرر له حكماً.

ويصح أن يضرب المثل لهذا بصلاة الرغائب، فقد ألف الشيخ عز الدين بن عبد السلام رسالة وضح فيها أنها بدعة. وهذا مما لا تدخله الريبة؛ فإنه إذا ثبت أن الحديث الذي يروى في شأنها موضوع، كما حقق ذلك أبو الفرج بن الجوزي، انطبق عليها أنها عمل لم يحدث له موجب، ولا ورد فيه أثر عن صاحب الشريعة، وهذا بخلاف ما يكون السبب الموجب له طارئاً بعد زمن الوحي؛ كتدوين علم العربية، وجمع القرآن في المصاحف.

*** درس في التفسير:**

سايرني بعد أن انتثر عقد المجلس بعض التلامذة، واقترحوا عليّ إقراء درس من التفسير، وحكوا أن لغيرهم من أهل العلم حرصاً أكيداً على هذا الاقتراح، فبسطت إليهم بمعذرة أني قد ربطت العزم على الرحيل صبيحة يوم الأحد، فقالوا: يمكن أن نعيِّن لميقات الدرس عشية غد، ونكتفي بالمقدار الذي يتيسر جمعه وبيانه، والغرض إنما هو المحافظة على سنّة الكثير من أهل العلم حيث يمرون بالأزهر، فما وسعني إلا أن ساعدت مرغوبهم، فأحضروا «تفسير القاضي البيضاوي»، ووقع الاختيار على أن يكون موضوع الدرس: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾[التوبة: ١٢٢] إلى آخر الآية.

افتكرت في المنهج الذي نتبعه في تحرير الدرس، فسبق لي استحسان إبرازه في الأسلوب المتعارف في جامع الزيتونة، فلا أسلّ يدي من تقرير ما يناسب من مباحث عربية أو أصولية، أو أحكام فرعية؛ لأن المقترحين للدرس أزهريون.

أتينا صباح يوم السبت على المسجد الذي ابتدعه عبد الرحمن بن الشيخ عليش ـ رحمه الله ـ، وشاهدنا بأعيننا ما رسمه في أعلى مفتحه بالقلمين الأفرنجي والعربي، وأنكره عليه علماء الإسلام. ثم مضينا للوفاء بموعد الشيخ عبد المعطي السقا، فجاز بنا إلى داخل منزله، وأهداني كتاباً حافلاً ألّفه فضيلة جده المنعم في فضل عمارة المساجد، وللشيخ عبد المعطي عناية كبرى بالفحص عن التآليف النادرة، والسعي الحثيث في تحصيل ما نشرته المطابع في البلاد القاصية. وقد تفضل عليّ بردّ الزيارة، فاتفق أن كنت في خارج المنزل، فكتب بطاقة يشعرني فيها بزيارته، ويتأسف لعدم الملاقاة، وأودعها لدى ناظر «الكلوب».

*** تعليم الصبيان:**

ذهبت إلى الجامع الأزهر لأذان العصر، وانتدبت للتحية مكاناً بين مجمعين لتعليم القرآن، فانشق صدري أسفاً لأحد المعلمين؛ إذ كان لا يضع العصا من يده، ولا يفتر أن يقرع بها جنوب الأطفال وظهورهم بما ملكت يده من القوة، وربما قفز الصبي آبقاً من وجع الضرب الذي لا يستطيع له صبراً، فيثب في أثره بخطوات سريعة، ويجلده بالمقرعة جلداً قاسياً، حتى قلت لأزهري كان بجنبي: من جلس إزاء هذه المزعجات، فقد ظلم نفسه. وذكرت أني كنت ألقيت خطبة في أدب تعليم الصبيان ببلد بنزرت[1] حالما كنت

(١) مدينة على الساحل التونسي تولى الإمام القضاء فيها عام ١٩٠٥م.

قاضياً بها، وأدرجت فيها ما قرره صاحب «المدخل» من الرفق بالصبي، وعدم زيادة المعلم إن اضطر إلى ضربه على ثلاثة أسـواط، وتحذيره من اتخاذ آلة للضرب مثل عصا اللوز اليابس، والفلقة. ولما خطبت في هذه الآداب، أرسل لي بعض المعلمين كتاباً على طريق البريد يعترض فيه على نشر هذه الآداب، ويقول: إن هذا مما ينبه قلوب التلامذة للجسارة علينا.

وكان أمامي في هذه الجلسة تلميذان يتفاهمان كتاباً في العربية يطالعانه، بمقربة منهم تلميذ ثالث، حتى أتيا على قول الشاعر:

. . . . على أن فاها كالسلافة أو أحلـى

فقال أحد التلميذين: السلافة: الخمر، فقال له ذلك التلميذ الذي هو بمعزل عنهما: السلافة: حيوان، فأعاد عليه الأول القول بأنها الخمر، وكرر الآخر القول بأنها حيوان، فقال له صاحبه منبهاً له على وجه خطئه: «أو أحلى، أو أحلى!»، فرجع وقال: السلافة شيء ضيق، قال هذا ليلائم تشبيه الفم بها، وأظنه اشتبه عليه أولاً لفظ السلافة بالسلحفاة.

*** إلقاء درس في التفسير:**

سبق في ظني أن مقترحي الدرس قصدوا أن يكون إقراؤه برواق المغاربة، فانصرفت بعد صلاة العصر متوجهاً لذلك الرواق، فأنبؤوني بأنهم اختاروا أن يكون بوسط الجامع، وعرضوا عليّ منصة بعض الأساتذة، فلم يسعني إلا أن أجلس حيث عزموا.

أقبلت قبل الشـروع في تقرير الدرس على تلميذ أعرفه بحفظ القرآن، وصرفِ الهمة في تجويده، واقترحت عليه أن يجهر بتلاوة الآية؛ ليسـمعها الحاضرون، فمنعه الحياء، وتقدم تلميذ آخر، فرفع بها قراءته، ورتلها ترتيلاً.

ونودع في هذه الخلاصة جملة من المباحث التي أوردناها في تفسير الآية، عسى أن تكون أنظار بعض القارئين قد طمحت إلى الإلمام بمقاصدها.

قررنا في فاتحة الدرس قول الشيخ ابن عرفة: «من الناس من ينظر في وجه المناسبة بين الآية وما قبلها؛ كابن الخطيب، ومنهم من لا يلتزمه في كل آية؛ كالزمخشري، وابن عطية، ومنهم من يمنع النظر في ذلك، ويحرمّه؛ لئلا يعتقد أن المناسبة من إعجاز القرآن، فإذا لم تظهر المناسبة للناظر، وهم في دينه، ووقع له خلل في معتقده»، وعلقنا عليه: أن هذا الاختلاف إنما يقع لهم في الآيات التي لم تقترن بنحو حرف العطف؛ إذ يمكن الاكتفاء في بعضها بأن اتصال الآية بما قبلها معتبر فيه الترتيب بينهما في النزول الوارد على حسب الوقائع والحاجات، أما إذا اتصل بها حرف الوصل؛ كهذه الآية، فتطلُّب المناسبة متعين؛ لأن رعايتها حينئذ داخلة في حقيقة البلاغة التي هي الركن الأعظم في الإعجاز. ثم أتينا على عقد المناسبة بين هذه الآية وما قبلها.

ثم انتقلنا إلى بيان قول القاضي في تفسير الآية: «لا يستقيم للمؤمنين أن ينفروا جميعاً لنحو غزو، أو طلب علم، كما لا يستقيم لهم أن يتثبطوا جميعاً؛ فإنه يخل بأمر المعاش». والبيان: أما خطر انصراف الناس قاطبة إلى اجتناء ثمر العلوم، وإخلاله بمطالب حياتهم، فلأن الإنسان يفتقر في تحصيل معاشه ووسائل بقائه إلى مساعدة أبناء جنسه، ولا يستطيع أحد أن يقوم بها وحده، وإن بلغ أشدّه في استقامة البنية، وسعة الفكر، فإذا نفر الشعب بحذافرهم، وولوا وجوههم شطر الارتواء من العلم، ضاعت واجبات اجتماعهم، وانتقضت عليهم قواعد العمران من زراعة وصناعة وتجارة.

وأما تخلفهم جميعاً، وقعودهم عن الرحلة في طلب العلم، فإنه يخل بنظام العيش من جهة أن جهل القبيلة بما أرشدت إليه الشريعة من العقائد والأخلاق، وخلوّها عما فصّلته من قوانين الاجتماع وضروب السياسات، يفضي إلى انتشار المفاسد، واشتعال نار الفتن مثلما كانت عليه حال العرب في جاهليتها، ولا تخالجنا الريبة في هذه الحقيقة، متى شاهدنا انتظام شؤون العمران، وتوفر أسباب الراحة لدى بعض الأمم العارية عن الصبغة الدينية، فإنها ما وصلت إلى تلك التراتيب التي ضربت بها أطناب الأمن والسكينة، إلا بعد أن فتحت أعينها في نظامات الشرائع السماوية، أو اقتدت على آثار الأمم المتدينة.

وفضائل العبادات أيضاً لها مدخل في انتظام العيش بمعنى: قرار النفس، ورضاها عما سخر الله لها من العيش، وهذا يعتبره الإنسان من نفسه متى نظر إلى حالته، وهو ملتفت بقلبه إلى زخارف الدنيا، وقاسها بحالته إذا أقبل بسريرته على ما يقربه إلى فاطر السموات والأرض؛ فإنه يجد في هذه الحالة من لذة اليقين، وراحة الخاطر ما يكشف له عن كدر كان يمازج قلبه، وحزازة هي أثر القساوة والإعراض بجانبه عن الطاعة، فيرى أن العيش المنتظم على الحقيقة إنما هو عيش الفائزين بهداية الدين علماً وعملاً.

وعبر في الآية بالمؤمنين دون الناس؛ لأن الآية مسوقة للحثّ على القيام بعمل، والأعمال إنما يرجى الامتثال فيها من المؤمنين، ولو كان الأمر هنا بواجب من العقائد، لناسبه التعبير بنحو: الناس. وقد قرر بعض المفسرين ـ فيما أعهده ـ: أن من عادة القرآن التعبير بمثل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾[البقرة: ٢١] إذا كان المخاطب به مما يرجع إلى أصل من أصول الدين، فإذا كان المأمور به

فرعاً من الفروع، صدر الخطاب بنحو: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾[البقرة: ١٠٤].

أو يقال: إن ذكر المكلفين هنا بوصف الإيمان؛ لتقوية داعيتهم، وإغرائها على العمل بأسلوب لطيف؛ فإن في تسميتهم بالمؤمنين تلويحاً إلى صفة الإيمان بالله من شأنها أن تبعث على حسن الطاعة، والمسارعة إلى امتثال أوامره.

وتعرضنا عقب هذا إلى البحث في لفظة: «كافة»، فقررنا أن ابن هشام ذهب في «مغني اللبيب» إلى أنها من الأسماء التي لا تخرج عن النصب على الحال، وخطأ الزمخشري في قوله بخطبة «المفصل»: «محيطاً بكافة الأبواب»، وقد صحح الشهاب في «شرح درة الغواص»: أنها لا تلزم النصب على الحالية: ومما استشهد به القائلون بانفصالها على الحالية: قول عمر بن الخطاب ﷺ: «قد جعلت لآل بني كاهلة على كافة بيت مال المسلمين لكل عام مئتي مثقال ذهباً إبريزاً».

قال الدماميني: إن صح هذا، سقط القول بملازمتها للنصب على الحالية.

وتعليق الدماميني مفارقة «كافة» للحالية على صحة الأثر مما جرى فيه على سنن التحقيق؛ فإن المحرر في الأصول العالية لعلم العربية: أن الكلمة إذا وردت في محل، ولم يسمع استعمالها في غيره، فإنما تطرد في الموضع الذي سمعت فيه، ولا يقاس عليه غيره من المواضع، ومن هذا تخصيصهم: «فل، ولومان، ونومان» بالنداء، ونحو: «قط، وعوض» يختصان بالظرفية، وبنى على هذا الشيخ ابن الحاجب أن لفظة «كل» إذا أضيفت إلى الضمير، لم تستعمل في كلامهم إلا توكيداً، أو مبتدأ، فيمتنع

جعلها مفعولاً به، أو فاعلاً.

ثم قلنا: ويندرج في التفقه في الدين: تعلم ما يرجع إليه من أحكام وعقائد وأخلاق، وأما إطلاق الفقه على معرفة الفروع خاصة، فعرْفٌ حادث بعد نزول القرآن، فلا يصح تفسير الآية به؛ فإن القرآن أنزل بلسان عربي؛ ليتمكن العرب من فهمه، فينتفعوا بالعلم به في أنفسهم، ويبلغوه إلى غيرهم من الأمم لعلهم يتذكرون، وهذه الحكمة تستدعي أن يكون الكتاب جارياً في سائر استعمالاته على المعاني المألوفة لهم في موضوعات لسانهم، وأساليب كلامهم، وإذا ألقى إليهم قولاً مجملاً، أو كلمة لم يسبق لهم علم بمدلولها، لم يتمادوا على الجهل بها، وتعلموا بيانها عن رسوله ﷺ. فإذا لم تكن الكلمة معهودة الاستعمال في معنى وقت الوحي، ولم يعينه صاحب الشريعة في بيانها امتنع حملها عليه، وبهذا يظهر عدم صحة ما قاله بعض البيانيين في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ﴾[الأنبياء: ٢٢] إلخ الآية، من أن استعمال «لو» في الاستدلال بامتناع الفساد على امتناع تعدد الآلهة وارد على قاعدة أهل المعقول، والصحيح ما قاله الشيخ ابن الحاجب من أنه استعمال عربي فصيح، كما لا يستقيم قول بعض الكاتبين على قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾[يس: ٦٩]: إن المراد: الشعر الذي هو أحد أقسام القياس، وقد أنكر الشيخ ابن تيمية على من فهم التأويل في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾[آل عمران: ٧] على معنى صرف اللفظ عن المعنى الراجح لدليل يقترن به؛ لأنه معنى اصطلح عليه طوائف من المتأخرين، ولم يكن معروفاً للسلف بهذا الوضع، بل مسمّى التأويل في لغة القرآن هو نفس المراد بالكلام من الأمور الموجودة في الخارج.

ثم قررنا تفاوت العلوم في الشرف، واستطردنا أن الإقبال على العلم أفضل من الاشتغال بالعبادة لوجهين:

أحدهما: أن مصلحة العبادة خاصة، ومصلحة التعليم عامة، وما له مصلحة عامة أشرفُ مما مصلحته خاصة.

ثانيهما: أن في التعليم درء مفسدة، وفي العبادة جلب مصلحة، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، ولاسيما ما يدرأ الخلل في الدين، قال ابن جماعة في «كشف المعاني» عند قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[الناس: ١]: المستعاذ به في هذه ثلاث صفات، والمستعاذ منه شيء واحد، وهو الوسوسة، والمستعاذ به في السورة قبلها صفة واحدة، والمستعاذ منه أربعة أشياء؛ لأن المطلوب في سورة الناس: سلامة الدين من الوسوسة القادحة فيه، والمطلوب في سورة الفلق: سلامة النفس والبدن والمال، وسلامة الدين أعظم وأهم، ومضرته أعظم من مضرة الدنيا، فموقع الدين من النفوس شديد، ولهذا كان تأثيرها للاستخفاف بشأنه، أو تحريف بعض حقائقه فوق كل تأثير، وانظروا إلى فرعون لما أراد صرف وجوه القوم عن اتباع موسى ـ عليه السلام ـ كيف قدّم لهم التخوف منه على تبديل دينهم، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾[غافر: ٢٦].

هذا في دين يفتضح صاحبه لأول كلمة ترمى لإبطاله، فما بالكم بدين كشف عن صفاء فطرته كتاب حكيم، وخضع لسطوته كل فكر مستقيم.

ثم أوردنا ـ بعد تقرير ما أمرت به الآية من تعلم أحكام الدين ـ قول العضد في خطبة «المواقف» ناقلاً عن بعض الأئمة: إن المراد من الاختلاف في حديث: «اختلاف أمتي رحمة»: اختلاف هممهم في العلوم، فهمّة واحد

في الفقه، وهمّة آخر في الكلام، كما اختلفت همم أصحاب الحرف؛ ليقوم كل واحد بحرفة، فيتم النظام، وعلقنا عليه: أن الذي يحمل الحديث على هذا المعنى يقصد التباعد من فهم الأثر على معنى: اختلاف الأمة في آرائها، ولا يرضيه أن تدخل الرحمة من ناحية اختلاف الآراء، ولو في الفروع؛ لأن نصوص الشريعة طافحة بالنهي عن الاختلاف بإطلاق، وذوو الاجتهاد مأمورون ببذل الوسع في إزالته، والتلاقي في مذهب واحد؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾[النساء: ٥٩] إلخ الآية، لكنهم إذا أفرغوا جهدهم في البحث عن الأدلة، وأمعنوا النظر فيها بقصد الوصول إلى ما هو حق، ثم أدركهم العجز عن الاتفاق، فالعذر قائم، وباب العفو مفتوح، والعفو عن هذا الاختلاف وعدم مؤاخذتهم عليه لا يقتضي أن في الخلاف رحمة، وأنه أصلح من الوفاق، وأسعد من تضافر الآراء على مذهب.

نقلت قول القاضي: أن في الآيـة إيماء إلى أنه ينبغي أن يكون غـرض المتعلم من العلم: أن يستقيم، ويقيم غيره، وتخلصنا منه إلى أن أعظم درجات الإنسان وأشرفها أن يكون كاملاً في نفسه، ومنبعاً يتدفق منه الصلاح والكمال إلى غيره.

ووصلنا هذا بنكتة لطيفة أعهدها لبعض المفسرين عند قوله تعالى: ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾[الأحزاب: ٤٦]، وهي أنه وقع تشبيه النبي ﷺ بالسراج دون أن يمثله بنحو القمر الذي هو أغزر نوراً؛ لأن القمر يضيء في نفسه، ولا يمكن أن يستمد من ضوئه عدة أجرام تكون مضيئة في نفسها؛ بخلاف السراج، فإنه في ذاته، ويمكن أن يقتبس منه سرج لا يشملها الإحصاء، فالتمثيل به أوفى بالمراد، وأقرب مطابقة لحاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

أتينا هنا على أن المنذر يتعين عليه أن يتحرى في إنذاره؛ بحيث لا يستند فيه إلا إلى علم صحيح من آية، أو حديث ثابت، أو نص من يقتدى به من الأئمة، وخرجنا منه إلى جريمة الحكم بغير ما أنزل الله، وقررنا ما نعهده للرازي في آية: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾[المائدة: ٤٤]، وفيما نقلناه من الأجوبة عن آية: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[المائدة: ٤٤]: أن المشار إليهم بالكفر هنا من حكموا بغير ما أنزل الله معتقدين أن ما قضوا به أوفق بالسداد، وأحفظ للمصالح.

وأدرجنا هنا دقيقة للشيخ ابن عرفة، وهي: أن أسلوب الآية أبلغ من أن لو قيل: «ومن حكم بغير ما أنزل الله»؛ فإن هذه العبارة لا تتناول من تقدم إليه الخصمان بقضية، فأهملها، وهو يستطيع فصلها؛ بخلاف الآية؛ فإنها تتناول من حكم في القضية بالباطل، ومن أبى الحكم فيها بما أنزل الله، وسكت، وهو منتصب في مقام الفصل بين الناس.

انتقلنا إلى أن للإنذار بالقرآن تأثيراً بالغاً على النفوس؛ بحيث لا يقوم كلام البشر مقامه، وإن ارتقى من البلاغة ذروة سامية. واستطردنا مقالة نفيسة لصاحب «المنهاج»، وهي: أن الله تعالى خصّ القرآن بأنه دعوة وحجة، ولم يكن مثل هذا لنبي قط، إنما كان لكل واحد منهم دعوة، ثم يكون له حجة غيرها، وقد جمعها الله لرسوله ﷺ في القرآن، فهو دعوة بمعانيه، حجة بألفاظه، وقلنا عقب هذا: إن القرآن حجة بمعانيه أيضاً؛ فإن استقامة سائر ما احتوى عليه من القضايا، وانطباقها بجملتها وتفاصيلها على مناهج الحكمة، ورسوم السياسة العادلة، يدل دلالة مثل فلق الصبح على أنه وحي سماوي، وأنه بريء من أن تبتدعه أفكار البشر، وبهذا يمكن للعجم الذين لا يحسنون

العربية أن يدركوا وجهاً من إعجازه متى نقلت لهم معانيه الأولية بترجمة محررة.

ثم قررنا عند قوله: ﴿قَوْمَهُمْ﴾[النساء: ٩٠]: أن إضافة القوم هنا للعموم، ومعلوم أن الجمع المضاف من صيغ العموم، فتفيد الآية: أنهم ينذرون بما تعلموه من الفقه كل فرد من أفراد قومهم، فيبطل ما يزعمه بعضهم من أن لأهل التصوف أحكاماً خاصة يتلقونها بطريق الباطن.

قال أبو إسحاق الشاطبي: لم يشرع الله تعالى إلا ما جاء به النبي ﷺ، وتلقاه منه الصحابة، ثم العلماء. والتصريح بإبطال أن يكون للعارفين بالله أحكام تخصهم فيه سد لباب الخروج عن تقاليد الشريعة، زيادة على كشفه عن الحقيقة؛ فإن فتح هذا الباب يفضي أن ينبذ كثير من الناس الجادة، بدعوى: أنهم بلغوا درجة الولاية، وأنهم متعبدون بأحكام باطنة، وأهل التصوف الخالص أنفسُهم يصرحون بهذا.

قال الإمام الجنيد ـ حسبما نقله الزركشي في شرح «جمع الجوامع» ـ: من لم يحفظ القرآن، ويكتب الأحاديث، لن يقتدى به في هذا الأمر؛ لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة.

ذكرنا استدلالهم بالآية على أن خبر الآحاد حجة، ثم قلنا: اشتهر بين الأصوليين أن خبر الآحاد حجة في العمليات، وأما المسائل العلمية، فلا يتمسك فيها إلا بقاطع، قال الإمام في «المحصول»: إن ورد خبر الآحاد في مسألة علمية، وليس في الأدلة القاطعة ما يعضده، رد، وإلا، قبل. واختار الشيخ ابن عرفة أن المسائل العلمية التي لا ترجع إلى العقائد يكتفى فيها بالأدلة الظنية؛ كخبر الآحاد، وإنما يشترط القطع في العمليات الراجعة إلى العقائد الإيمانية.

واستطردنا هنا مسألة اعتراض خبر الآحاد لقاعدة كلية، وأوردنا في مساقها ما ذكره أبو بكر بن العربي في تفصيل مذاهب الأئمة الثلاثة، وهو قوله: إذا جاء خبر الآحاد معارضاً لقاعدة من قواعد الشرع، هل يجوز العمل به، أو لا؟ فقال أبو حنيفة: لا يجوز العمل به، وقال الشافعي: يجوز، وتردد مالك في المسألة، ومشهور قوله، والذي عليه المعول: أن الحديث إن عضدته قاعدة أخرى، قال به، وإن كان وحده، تركه؛ كحديث العرايا؛ فإنه صادمته قاعدة الرب، وعاضدته قاعدة المعروف.

وأتى بنا سؤال من أحد الحاضرين إلى معنى القاعدة ومأخذها، فقلنا: هي قضية تنتزع من دلائل متفرقة في الشريعة حتى تكون قطعية في نفس من استقرأها من المجتهدين؛ كقاعدة: ارتكاب أخف الضررين، فمن مأخذها قوله تعالى: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾[الكهف: ٧٩]؛ فإن إعابة السفينة ضرر، ولكنه أخف من أخذ الملك لها بسلطة غاصبة، ومن منازعها حديث الأعرابي الذي جعل يبول في المسجد، وزجره بعض الصحابة، فقال لهم النبي ﷺ: «لا تزرموه»؛ فإن بوله في المسجد ضرر، إلا أنه أخف من الضرر الذي ينشأ من إمساكه عن البول قبل فراغه.

وجئنا في تفسير: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة: ١٢٢] على اختلافهم في حرف الترجي الواقع في كلام الله تعالى؛ فإن منهم من يخرجه على معنى التعليل؛ كما ذكره ابن هشام في «مغني اللبيب»، ومنهم من يصرفه إلى المخاطبين؛ كما نقله صاحب «الإتقان» عن سيبويه؛ حيث قال في معنى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾[طه: ٤٤]: اذهبا على رجائكما وطمعكما. ويجري على هذا كل ما فيه حرف تَرَجٍّ؛ نحو قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[البقرة: ١٨٩].

وكان بعض التلامذة حين شرعت في إقراء الدرس قائمين على أقدامهم من ورائي يوردون أسئلة، ويطالبون إعادة بعض التقارير، وما لبثوا أن انقلبوا إلى السكينة والإصغاء، وكانوا يلهجون عند الاستحسان بكلمة: «كويس» تصغير كيّس.

*** الاجتماع بأهل العلم والفضل:**

رافقني بعد انفصالنا عن الدرس طائفة من التلامذة، فمررنا بمنزل كان أحد الجلساء به الأستاذ الشيخ الزنتاني، فوقف موقف التحية، وحدثه أحد الرفقاء بما كنا بصدده من قراءة التفسير، فتوجه لي وقال: قد أحييت سنّة الشيخ ابن عرفة، فذكر له الرفيق: أن الدرس أيضاً يحتوي على مباحث متعددة منقولة عن الشيخ ابن عرفة.

تفضل عليّ بالزيارة في هذا المساء السيد شرف أحد الأعيان في عائلة أشراف مكة المحترمة، فمثّل لنا بعلو همته، وسلاسة أخلاقه كيف تكون همم بني هاشم وآدابهم، ثم أخذ بيدي حتى امتطينا عربة سارت بنا لإجابة دعوة السيد الشريف بن حمودة، ولما انقضت المسافة، ضرب كل منا بيده إلى كيسه ليتولى خلاص أجر الركوب عن سائر الجماعة، فكانت يد السيد شرف أسرع في فتح الكيس ومناولة الدراهم لسائق العربة، وأكد علينا أن نرد إلى الأكياس بضائعها، فقال له الشيخ محمد الصالح الشواشي على وجه الدعابة: لا تقسم علينا أيها الشريف متطاولاً، فنحن أشراف أيضاً، فتبسم منبسطاً لهذه الجسارة المشعرة بسلامة الضمير وحريته.

وقد تذكرت بهذه المداعبة ما كتبه الشريف الرضي إلى الإمام القادر بالله، وهو:

عطفـــاً أميـــر المـــؤمنين فإنّنـــا   فـــي دوحـــة العليـــاء لا نتفـــرّق
مـــا بيننـــا يـــوم الفخـــار تفـــاوتٌ   أبـــداً كلانـــا فـــي المعـــالي مُعـــرقُ
إلا الخلافـــةَ قلّـــدتك فـــإنني   أنـــا عاطـــلٌ منهـــا وأنـــت مُطَـــوَّقُ

مضى لنا مع الشرف والشريف مجلس أنس يحاكي نسيم الأسحار، إذا جاءت متضمخة بنفحات الأزهار، ولكننا مررنا عند إيابنا بامرأة جالسة بقارعة الطريق، والناس ملتفة حولها وهي تتلو القرآن بصوت رخيم.

أخذ مني الأسف مأخذه، لما قدمت على المعهد الأزهري حين طويت منه محاضر الدروس، وبرز أساتذته العظام لقضاء أمد الراحة الصيفية في أماكن الرياضة ومهابِّ النسيم، ولم يتفق لي أن أشاهد محضرة درس بهذا الجامع العظيم، وأنبأني التلامذة بأن سائر دروس الجامع معطلة، ولا يقرأ به في هذه الأيام ولو درساً واحداً.

*** زيارة بور سعيد:**

سافرت صباح يوم الأحد إلى «بور سعيد»[1]، ومررنا على جانب من فتحة السويس التي وصلت البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط، وحقّ لي عندما بلغت إلى مجمع هذين البحرين أن أذكر بيتين كان العلامة البليغ صاحبنا الشيخ السيد محمد الطاهر بن عاشور[2] قد أرسلهما إليّ في بطاقة يدعوني بها إلى زيارته حيث حل بحضرته اثنان من أولي العلم والأدب، وهما:

---

(١) مدينة «بور سعيد» على قناة السويس.

(٢) من كبار علماء تونس، ومن الأصدقاء الأوفياء للإمام. انظر ترجمته في كتابه: «تونس وجامع الزيتونة».

تألقت الآداب كالبدر في السحر وقد لفظ البحران من موجها الـدُّرَرْ

فما لـي أرى منطيقهـا الآن غائبـاً وفي مجمع البحرين لا يفقد الخَضِـرْ

شأن القرآن في سرد القصص وضربها أمثلة الاكتفاء بماله مدخل في الموعظة والاعتبار، فتجده ـ في الغالب ـ لا يصرح بأسماء الأماكن التي تجري فيها الوقائع؛ كقصة ملاقاة موسى للخضر ـ عليهما السلام ـ؛ فإنه لم يعين المراد بمجمع البحرين؛ حيث لا ينبني على التعيين فائدة في الإرشاد؛ لأن الحكمة من مساق هذه القصة: التذكير بما اشتملت عليه من المحامد والآداب؛ كسفر العالم للازدياد في العلم، وتكبده المشاق في السير له، ولو بعدت المسافة سنين؛ فإن موسى ـ عليه السلام ـ يقول: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾[الكهف: ٦٠]، والإيماء إلى أن التوكل: اعتماد القلب على الله، لا في نكث اليد من الأسباب؛ فإنه ـ عليه السلام ـ حمل معه الزاد، ودلّ على هذه بقوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾[الكهف: ٦٢] إلى غير هذا من الفوائد، ولكن بعض المفسرين كثيراً ما يسردون أقوالاً في أسماء ما جاء مبهماً في القرآن؛ كاختلافهم هنا في المراد من البحرين، فقيل: هو بحر فارس والروم، وقيل: بحر القلزم[1] وبحر الأردن، ومجمع البحرين عند طنجة، أو بإفريقيا، وقيل: هو بحر الأندلس والبحر المحيط، والتعيين في مثل هذا لا يعول عليه إلا إذا جاء به حديث صحيح، ومن العجائب قول بعضهم كما نقله الأبي في «التفسير»: إنه يقع في نفسي أن مجمع البحرين هو مجتمع البحر المالح، ووادي مجردة عند الدرسة، وهو الذي يقال له: حرق الجسرين، والصخرة: صخرة أبي ربيعة، والجدار في «المحمدية».

---

(١) القلزم: مرفأ قديم على البحر الأحمر يرجع إلى عهد الفراعنة.

*** الرسوُّ في يافا:**

امتطينا الباخرة الخديوية مساء هذا اليوم، وتعارفنا فيها بالشيخ عبد القادر ابن الشيخ زاده أحد علماء طرسوس[1]، فأرانا السكينة في أحسن تقويم، وما برحنا نروح الخاطر بمحادثته إلى أن رست الباخرة أمام بلد «يافا»، فغرب عنا بدر فضله بعد أن أعطانا ملء صدورنا أنساً.

*** جولة قصيرة في حيفا:**

وصعد إلى الباخرة من بلد «يافا» الفاضلان: السيد المختار بو هاشم التونسي، والشيخ موسى البديري أحدُ المدرسين بجامع القدس، وهو عالم استقى من الأزهر، ثم من مدارس الآستانة، وقد صحبنا صحبة ذي عهد قديم، وجاملنا مجاملة الصديق الحميم. نزلنا رفيقين إلى بلد «حيفا» لما أرست الباخرة تجاهها، وتجولنا يميناً وشمالاً، ثم آوينا إلى جامعها الكبير، ووقفنا على مشكاة يذكرون أن بها شعرات من آثار الحضرة النبوية، ورأينا في هذا الجامع أربع معلقات مقرراً فيها فرائض الصلاة، وسننها، ومستحباتها، ومكروهاتها، ومبطلاتها، كل معلقة مرسومة على مذهب إمام من المذاهب الأربعة.

لبثنا في «حيفا» مقدار أربع ساعات، ثم ودعت رفقائي الفضلاء: السيد مسعود المحيرصي، وأخاه السيد عثمان، والسيد محمد القديدي، وانقلبنا إلى الباخرة.

كنت أسمع كثيراً من الناس يذكرون الصخرة بالقدس، ويعتقدون بأنها

---

(١) طرسوس: مدينة في تركيا.

قائمة في الهواء، ولكن بعض الأمراء بنى حذاءها جداراً ملاصقاً لها؛ ستراً لشأنها العجيب؛ لئلا يفتتن بها الناس، وقد رأيت هذا في بعض الرحلات أيضاً، وفي ظني أنها رحلة خالد بن عيسى البلوي، وطالما يجري بيني وبين من يعتقد صحة هذا مناقشة. ولما نبأني الشيخ موسى أنه يقوم بالتدريس عند فنائها، حادثته بقصتها، فحدثني بأنها موضوعة على بناء راسخ في الأرض، وأن هذه خرافة افتراها بعض الدجالين هناك، ثم أخذ خلفهم يلقونها إلى الواردين البسطاء لغرض واضح.

*** المرور في بيروت إلى دمشق:**

بلغنا إلى «بيروت» يوم الأربعاء، وأقمت بها نحو ساعتين، ثم توجهت إلى محطة الرتل، فأخذت في بعض بيوته مقعداً، وسار الرتل متدرجاً من بطاح بيروت إلى جبل لبنان، وكان أحد الجلساء عارفاً بأسماء المواقع، وله ذوق في الأدب، فاستفدت من تعاريفه، حتى انحدرنا على الرياض المتصلة بدمشق، وقد أنشأت في هذا الحال:

لجّ القطار بنا والنار تسحبه ... ما بين رائق أشجارٍ وأنهارِ

ومن عجائب ما تدريه في سفر ... قوم تقاد إلى الجنات بالنارِ

*** مع علماء وفضلاء دمشق:**

وصل القطار إلى مدينة دمشق بعد الساعة العاشرة مساء، وحيث لم أكن على خبرة مفصلة بالمنزل الذي حلته عائلتنا، عمدت إلى بيت في أحد القصور المعدة للغرباء، واسترحت بها بقية سواد الليل، وما انصرفت إلى مسكن العائلة حتى مطلع الفجر.

جاء لنا طائفة من فضلاء المدينة وعلمائها بزيارة التسليم، ولاقونا بحفاوة

بالغة حين غشيت منازلهم زائرين، وفي مقدمة هؤلاء الكرام: المفتي الجليل الشيخ محمد أبو الخير بن عابدين من عائلة الشيخ ابن العابدين الحنفي الشهير، والشيخ السيد أديب نقيب الأشـراف، والأمير عبدالله بن الأمير عبد القادر، والأساتذة الشيخ يوسف النبهاني الشهير، والشيخ عارف منير، والشيخ حسن الأسطواني، والشيخ عطاء القسم، والشيخ مصطفى طنطاوي، والشيخ رضا مفتي آلاي، وابنه الشـيخ يحيى المكتبي، والشـيخ محمود، والشيخ سعيد الجزائري.

*** صلاة الجمعة في المسجد الأموي:**

زرت مسجدها الشهير بالجامع الأموي، وشاهدت من تنميقه واتساع أركانه ما يعز نظيره فيما رأيت من المساجد الجامعة، ولم نلف به لذلك الحين سوى درسين:

أحدهما: في الوعظ يقوم به أحد المشايخ الصادرين عن الجامع الأزهر.

وثانيهما: في الفقه المالكي يتولى قراءته الشيخ عبد القادر من فقهاء الجزائر.

شهدت به صلاة الجمعة، فكان مع هذه السعة في الطول والعرض غاصاً بالمصلّين، وحدثني الشيخ سعيد الجزائري، وقد التقيت به عقب الصلاة: أن بعض الباحثين قدَّر المصلين به في مثل هذا اليوم بحساب محرر، فبلغ عددهم سبعة آلاف.

أما خطباؤه، فإنهم يلقون الخطب بلهجة صادعة، وأسلوب مؤثر، ولا ترى بيد واحد منهم عند الخطبة ورقة، فهم يمثلون هيئة الخطابة عند العرب، ويحفظون أثراً من آثار الفصاحة، بمعنى: طلاقة اللسان، والنطق

بالحروف متمكنة من مخارجها.

* **زيارة مقام ابن العربي:**

وقصدت إلى مقام الأستاذ الشهير الشيخ محيي الدين بن عربي ﷺ في بناءات تسمى: «الصالحية» تتصل بطرف دمشق، وقرأت على ضريحه رسماً به بيتان يحتوي ثانيهما على تاريخ، وفاته وهو:

إن سألتم متى توفي حميداً ‏ ‏ ‏ قلت أرخت: (مات قطب همامُ[١])

ويرى الزائر بجانب منه ضريح الأمير عبد القادر الجزائري، قد رسمت عليه أربعة أبيات تشتمل على تاريخ وفاته، أولها:

لله أفق صار مشرق دارتي ‏ ‏ ‏ قمرين هلاً من بلاد المغربِ

وآخرها:

من نال مع أعلى رفيق أرّخوا ‏ ‏ ‏ (أزكى مقامات الشهود الأقرب[٢])

---

(١) في عجز البيت: مات قطب همام بحساب الجمل تساوي:

مات = ٤٠ + ١ + ٤٠٠ = ٤٤١.

قطب = ١٠٠ + ٩ + ٢ = ١١١.

همام = ٥ + ٤٠ + ١ + ٤٠ = ٨٦.

المجموع: ٤٤١ + ١١١ + ٨٦ = ٦٣٨، وهي سنة وفاة ابن عربي الهجرية.

(٢) عجز البيت بحساب الجمل يساوي:

أزكى = ١ + ٧ + ٢٠ + ١٠ = ٣٨.

مقامات = ٤٠ + ١٠٠ + ١ + ٤٠ + ١ + ٤٠٠ = ٥٨٢.

الشهود = ١ + ٣٠ + ٣٠٠ + ٥ + ٦ + ٤ = ٣٤٧.

الأقرب = ١ + ٣٠ + ١ + ١٠٠ + ٢٠٠ + ٢ = ٣٣٤. =

وكان لهذا الأمير صبابة بفتوحات الشيخ ابن عربي، حتى إنه أرسل عالمين من علماء دمشق إلى «قونية» لتصحيح نسخة «الفتوحات»، ومقابلتها على النسخة التي حفظت هناك، وعليها خط يد المؤلف نفسه.

*** المكتبة الظاهرية ودار الحديث:**

وكنت أزور مكتبة الملك الظاهر، وهي مكتبة حافلة، وفيما رأيته من كتبها: «تفسير البقاعي» الذي أخذ على قلمه، وشرط على نفسه، أن يحرر فيه المناسبات بين الآيات. ودخل أبو المحاسن الشيخ يوسف النبهاني المؤلف الشهير يوماً، وأوصى حافظ المكتبة برعايتنا، وقال له: إن هؤلاء من بيوت الفضل بتونس.

وزرت مدرسة دار الحديث التي أنشأها الملك الأشرف، وفوّض تدريسها إلى الشيخ تقي الدين المعروف بابن الصلاح، ثم تولى مشيختها الإمامان: النووي، وتقي الدين بن السبكي، وهي التي يقول فيها ابن السبكي:

وفي دار الحديث لطيف معنى ... على بسط لها أصبو وآوي

عسى أني أمسّ بحرٍّ وجهي ... مكاناً مسّه قدمُ النواوي

ويشير بالبسط في البيت: إلى بساط رسم عليه الملك الأشرف ـ وهو واقف المدرسة ـ اسمه، وبسطه في أرضها.

قال تاج الدين السبكي في «الطبقات»: وكان يجلس عليه والدي «تقي الدين» وقت الدرس.

= المجموع = ٣٨ + ٥٨٢ + ٣٤٧ + ٣٣٤ = ١٣٠٠، وهي السنة الهجرية التي توفي فيها الأمير عبد القادر.

ولقيت في هذه المدرسة فضيلة العالم المحدّث الشيخ بدر الدين، وجلسنا لديه حيناً، فكانت عمارة الجلسة: بحث الأستاذ عما يوجد في الديار التونسية من الكتب الغريبة؛ مثل: «شرح الإمام المازري» لبرهان إمام الحرمين، و«حاشية الشيخ معاوية على مختصر السعد»، والحواشي التي علقت على «مختصر ابن الحاجب» في الأصول، ولهذا الأستاذ درس في «صحيح البخاري» يقرئه في الجامع الأموي يوم الجمعة فقط، يشرع في قراءته عقب صلاة الجمعة، والجوامع كلها تصلي لوقت الزوال، وينتهي لوقت العصر، شهدت هذا الأستاذ وهو يلقي الدرس بترسل، ويملي ما يبسطه الكاتبون على الحديث، وإذا استطرد حديثاً، ساقه بسنده، وله دروس أخرى يقرئها بمدرسة دار الحديث؛ فإن مشيختها اليوم بيده.

* مسامرات أدبية:

وزارنا الشيخ عبد الرحمن بن سلام أحد علماء بيروت، والسيد عبد النبي أحد معلمي المدارس الأميرية، ومعرب جريدة سوريا الرسمية، ونثر الشيخ على أسماعنا نبذة من جواهر أشعاره، وهو من الأدباء الذين يحذون في نطقهم الاعتيادي حذو العربية الصحيحة، ومما قاله في حاكي الصدى:

أنا الفنغراف مهما قُلْنَ أقبلُه ... إن شئت قلْ حسناً أوشئت قلْ خشنا
لكنه سوف يدري من يخاطبني ... أني لسان الذي قد ظنني أذنا

وقال وقد سافر إلى «بعلبك»، ولم تتبرج له تبرج البلاد الرائعة:

أتيت لبعلبك ومن أتاها ... يرى لديارها شيئاً عجيبا
كأن بيوتها أبيات شعري ... فلا حشواً تضم ولا غريبا

* **محادثات علمية في المدرسة التجارية بدمشق:**

وزرنا المدرسة التجارية، فتلقانا مديرها الشيخ مصطفى طنطاوي، وأحد مدرسيها الشيخ محمود بكامل المبرة، وعرّفنا الشيخ مصطفى بنموذج تعليمها.

وبمناسبة ذكر اللغة الفارسية في جملة اللغات التي تدرس بها، قلنا: إن للغة الفارسية مزية، ولهذا أجاز أبو حنيفة ﷺ القراءة بها في الصلاة لمن عجز على العربية، فقال لي: بل الإمام يجيز القراءة بأي لسان اتفق، ولا يخص هذا الحكم بالفارسية، وقد كنت طالعت هذه المسألة مقيدة بالفارسية في كتاب «الأحكام» لأبي بكر بن العربي، ثم أعدت النظر في بعض كتب المذهب الحنفي، فوجدت أحد الفقهاء، وهو الشيخ البرادعي نص على تخصيص الحكم بالفارسية، ولعل الراجح في المذهب خلافه.

ومما أورده في المحادثة: أن الحريق الذي حدث بدمشق لهذه السنة، قد أحاط بساحة المدرسة من جهاتها الأربع، ولم يتناول من مبانيها فتيلاً، فقلت له: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الرعد: ١٧] فوقعت لديه موقع الارتياح.

ودار على البساط حكم العلوم الرياضية والطبيعية في نظر الإسلام، ومما أدرجناه في هذه المحاورة: قول القرافي في «فروقه»: قد يغمض على الفقيه والحاكم الحق في كثير من المسائل بسبب الجهل بالحساب والطب والهندسة، فينبغي لذوي الهمم العلية أن لا يتركوا الاطلاع على العلوم ما أمكنهم، وتجاذبنا خلاصة ما حققه الإمام أبو حامد الغزالي في كتاب «المنقذ من الضلال» عند بحثه عن علم الطبيعيات، ونصه: «أما علم الطبيعيات، فهو بحث عن أجسام العالم: السماوات، وكواكبها، وما تحتها من الأجسام المفردة؛

كالماء، والهـواء، والتراب، والنـار، ومن الأجسـام المركبة؛ كالحيوان، والنبات، والمعادن، وما تحتها، وعلى أسباب تغيرها، واستحالتها وامتزاجها، وذلك يضاهي بحث الطبيب عن جسم الإنسان وأعضائه الرئيسية والخادمة، وأسباب استحالة مزاجها، وكما ليس من شروط الدين إنكار علم الطب، فليس من شروطه إنكار ذلك العلم، إلا في مسائل معينة ذكرناها في «تهافت الفلاسفة»، ثم قال: «وأصل جملتها: أن يعلم أن الطبيعة مسـخرة لله تعالى، لا تعمل بنفسها، بل هي مستعملة من جهة فاطرها، فالشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، لا فعل لشيء منه بذاته عن ذاته».

فهذا التقرير من إمام عرف شعاب هذه العلوم، بعد أن رسخ في العلم بمقاصد الشريعة الإسلامية، يشهد شهادة عادلة بأن الإسلام يسع صدره لكل ما يتدرج في حقيقة العلم ما لم يتحقق ضرره؛ كعلم السحر.

ودعانا هذا الشيخ إلى احتفال أقامه في هذه المدرسة لتوزيع الشهادات على تلامذتها، وكان النادي يحتوي على ما يناهز خمـسمائة نسمة، فيهم العلماء، وأرباب المناصب العالية، فوضعوا في صدره منصة شامخة، وصعد عليها فريق من التلامذة، وألقوا خطباً من محفوظاتهم باللغات الثلاث: العربية، ثم التركية، ثم الفرنسية، وبعد هذا قام غلام على المنصة، وألقى على التلامذة خطاباً أودع في ضمنه: أن هذه الشهادات التي سيبسطون أيديهم لتناولها، إنما منحوا بها محاباة، وأنهم سيتقلدونها عن غير استحقاق، فنهض أحد التلامذة، وأجابه عن ذلك الخطاب بمقال أومأ فيه إلى كفاءتهم، وأوسع له المجال في اختبارهم، فأجرى ذلك التلميذ عليهم الاختبار واحداً عقب آخر، وعرض عليهم أسئلة في العلوم التي تزاول بالمدرسة؛ كالحساب، والهندسة، والجغرافيا،

والنحو، والصرف، والتوحيد، والفقه، والفرائض، لكن السؤال في هذا الفن الأخير كان من قبيل المسائل التي يوردها الفرضيون في قالب الألغاز، ويتخلل هذا الاحتفال فترات يترنم فيها التلامذة بأناشيد وطنية.

* خضاب الشيب:

ومن تواصل بيننا وبينهم اللقاء: الأديب السيد رشيد الرافعي من العائلة الرافعية الشهيرة بطرابلس الشام، وهو أحد الأذكياء الذين استقوا معارفهم من الأزهر، وعكفوا على التحرير بالجرائد. جلسنا يوماً بدكان لشراء متاع، فقص علينا بعض الأميين أنه يوجد خضاب للشيب يبقى ساتراً لبياضه سنين، فالتفت إليّ السيد رشيد مستطلعاً رأيي في هذا الحديث، فسقت لهم من «عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء والفضلاء ببجاية»[1] ذكرى في ترجمة أبي العباس الجدلي: أنه وصل إلى أفريقية في خلافة المستنصر بالله، وسأله عن البلاد التي دخلها، والغرائب التي اطلع عليها، فمن جملة ما ذكر: أنه رأى ببلاد الهند صبغة إذا خضب بها الخاضب يقيم الثلاثين سنة لا يفتقر إلى خضاب، وكان من جملة الحاضرين بالمجلس «المروزي» من فضلاء الأطباء، فأنكر هذه القضية، وأنكرها الخليفة؛ لأن هذا إما أن يمنع نمو الشعر، أو يحيل الطبيعة بأن يؤثر هذا الصبغ في الشعر الذي ينبت من بعده، ولم يتفق له اجتماع بعد ذلك بالخليفة، وهكذا ينبغي للرجل أن لا يفتح سمعه لقبول الروايات إلا بعد أن يضعها على محك النظر والاعتبار، ثم التفت السيد الرشيد إلى ذلك الرجل، وأعاد عليه القصة بعبارات يفهمها.

---

(١) مؤلفه أبو العباس الغبريني المتوفي عام ٧١٤هـ ـ ١٣٠٤م.

*** الشيخ عبد القادر الخطيب:**

شـهدت درس الأسـتاذ عبد القادر الخطيب لصحيح الإمام البخاري بالجامع الأموي، وكان الدرس لذلك اليوم: أول حديث من كتاب الصوم، فعجبنا بفصاحته، وكثرة ما يجلب مما كتب في شرح الحديث.

ومن سنّتهم: أن يتقدم ـ قبل أخذ الأستاذ في تقرير الدرس ـ أحد القائمين بتجويد القرآن، ويتلو منه بعض آيات بترتيل. وليس من المكروه في عادتهم أن يقوم الجالس بحلقة الدرس، وينطلق إلى درس آخر، ثم يحن إلى الدرس الأول، فيعود إليه، أو يقف قبالة الأستاذ؛ لينظر إليه ماذا يقرر، أو ليقتنص منه فائدة، ويفارقه إلى درس آخر، ثم إذا شاء انقلب إليه.

ودعانا الشيخ رضا مفتي آلاي إلى منزله، وصعد بنا إلى بيت نضد فيه من الكتب ما يجعله مكتبة حافلة، ومما أطلعنا عليه: تآليف لطائفة الدروز بثوا فيها عقائدهم السرية، وقد انسـاقت إليه هذه الكتب حين خرج صحبة سامي باشا لتمهيد ثورتهم. ومن أصول عقائدهم: التصديق بألوهية الحاكم بأمر الله المتوفى قتيلاً بمصر سنة ٤١١هـ.

*** درس في الجامع الأموي:**

بعثني ما شاهدته من إقبال العامة، واحتفالهم بدروس الوعظ: أن ألقي دروساً بالجامع الأموي، فألقيت نحو اثني عشر درساً في أحاديث جامعة، وكانت الأسئلة في الدروس عندهم نادرة؛ فإني حضرت بمقربة من دروس متعددة، ولم يتفق أن أسمع باحثاً يتفاهم مع أستاذ.

ومما جرى لنا في الدرس الأول: أن أحد المستمعين الذين لهم صلة بالقراءة، ألقى بحثاً في موضـوع كنت آخذاً في تقريـره، فتعرض له بعض

الحاضرين، فأومأت إليه بعدم التعرض، وقلت له: إن التفاهم في خلال الدروس مما لابد منه. وجاريت السائل، ولكنه تشعب في المجادلة إلى أن شعرت بأن مباحثته مبنية على أن الموعظة التي كنت بصدد بثها لم تلتئم بما تهواه نفسه، ويوافق غرضه، فذكرت قول المتنبي:

إنمـا تـنجح المقالـة فـي المـرء إذا صـادفت هـوى فـي الفـؤاد

ثم أرسلت له عبارة مقنعة في الجواب، ومضيت في تقرير مطلب آخر، وبعد انقضاء الدرس، دنا إليّ، والتمس الإغضاء عمّا فرط منه، فقلت له: إنا متعودون بالبحث وتوسيع المجال للتفاهم.

*** درس آخر في المسجد الأموي:**

أخذت يوماً في إقراء حديث العرباض بن سارية ﷺ المسوق في اتباع سنّته ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وسنّة الخلفاء الراشدين من بعده، فأقبل جماعة من العلماء، وتفضلوا بالحضور في حلقة الدرس، منهم: الشيخ المفتي أبو الخير، والشيخ عبد القادر الخطيب، والشيخ أديب نقيب الأشراف، والشيخ السعيد الجزائري، وجرت بيننا وبين هؤلاء الأساتذة في أثناء الدرس مباحثات لطيفة.

وقد تحلى علماء دمشق بهذا الخلق العالي، وهو حضورهم بدروس الحديث من تلقاء أنفسهم؛ استمداداً لبركة الحديث، ومجاملة لمن انتصب لتدريسه.

وبسطنا هنا المقال في البدعة، وأتينا على تقسيم القرافي لها إلى خمسة أقسام، وتعقبناه بحصر أبي إسحاق الشاطبي لها في قسمين فقط: المحرّمة، والمكروهة، وأورد بعض الشيوخ على هذا الحصر قول سيدنا عمر بن

الخطاب رضي الله عنه في شأن صلاة التراويح: «نعمت البدعة»، فقلت: ذلك الإطلاق ملاحظاً فيه المفهوم اللغوي، وهو معنى المحدث، وأبو إسحاق الشاطبي يراعي البدعة في مقصد الشارع، وقد عرف بعض المحققين البدعة بأنها: ما يفعله الإنسان على أنه قربة، مع عدم ثبوته عن الشارع، وذلك لأن الفعل إنما يصير بأمرين:

أحدهما: النية الفاضلة.

والثاني: موافقته لوضع الشرع وشرطه.

فإذا تجرد عن الأمر الأول، كان عبثاً، وإذا اختل فيه الأمر الثاني؛ بأن أصدره صاحبه في أسلوب لم يثبت عن الشارع، كان بدعة. وبعضهم يتسامح للعامة في كثير من المحدثات يأتونها، ويلتمس لهم المعذرة؛ بأن نواياهم صالحة، وبما تقرر في تعريف البدعة تسقط هذه المعذرة؛ ويتضح أن القصد الجميل وحده لا يقلب العمل طاعة، ونضرب المثل لهذا بما رأيته بعيني من بعض زائري المقام الذي اشتهر أنه يضم قبر خالد بن سنان ـ عليه السلام ـ؛ حيث يرى الناظر أفواجاً من العامة يطوفون بشجرة جوار ذلك المقام كما يطوف الحاج ببيت الله الحرام.

وأذكر أني حللت ببعض البلاد، فرأيتهم إذا بلغ الصبي سورة البقرة، أحضروا بقرة، ووضعوا عليها زينة من الحلي، وتتجول بها جماعة في الطرقات العامة، وهم يقتفون أثرها بالدفوف والأذكار، فألقيت عليهم خطبة في البدع، ونصصت فيها على هذه المحدثة، فتلقاها الفضلاء وأهل العلم بالاستحسان؛ لأنهم يشعرون بسماجة هذه البدعة قبل أن أخطب، وقال طائفة من العامة: لو كان هذا أمراً بدعة، لنهانا عنه الشيخ فلان، أو الشيخ فلان ـ رحمهما الله ـ.

واستطردنا بمناسبة التعرض لفضيلة أبي بكر الصديق ﷺ حديث إذن النبي ﷺ له في الصلاة بالجماعة، وإشارته إليه بعد خروجه ـ عليه السلام ـ من حجرته الشريفة بالبقاء في مكان الإمامة، ودرج بنا التقرير على قاعدة تقديم الأدب، أو الامتثال، وفصلنا مجمل ما قاله الشيخ ابن حجر في «فتح الباري»، وهو: أن سيدنا أبا بكر إنما تأخر، ولم يقف عندما أشار إليه النبي ﷺ بالبقاء؛ لأنه فهم أن إيماءه ـ عليه السلام ـ له بالمكث في مكان الإمام من قبيل مجاملة شخصه، وإظهاره عاطفة محبته وحرمته، وإذا كان الأمر من هذا الوجه، فإذا امتثل الصديق، فإنما يستوفي حقاً يعود عليه بالفضيلة وحده، وإذا تأخر، فإنما يسقط حقاً من حقوقه الخاصة؛ بحيث أصبح الأمر بمنزلة الأوامر الواردة للإباحة، فاختار الصديق التأخر؛ إيثاراً لجانب الأدب، وليست هذه الواقعة كقصة امتناع سيدنا علي بن أبي طالب من محو لفظ: رسول الله من صحيفة صلح الحديبية، حين أبى كفار قريش كتابتها؛ فإن الاستدلال بتقديم الأدب على الامتثال هنا ظاهر؛ لأن الأمر بالمحو ليست فيه فائدة تعود على علي بن أبي طالب وحده، حتى يكون عدم امتثاله من قبيل إسقاط ما هو حق له.

قررت هذا، فقال لي أحد الأساتذة: من أين فهم أبو بكر ﷺ أن الأمر إنما صدر على وجه الإجلال له، وإظهار فضيلته، دون أن يكون الباعث على الأمر وجه آخر؟ ولم يسنح لي في الجواب وقتئذ سوى أن الدال على ذلك قرينة المقام؛ فإن أمره بالاستمرار على موقف الإمامة، والإمام الأعظم بالحضرة، لا يظهر له وجه سوى الإعلان بكرامته.

انتهينا من الدرس لصلاة العصر، وإثر الصلاة تألفت حلقة لأستاذ مصري يقرئ إزاء المكان الذي كنت أدرس فيه، وتأخر ذلك الأستاذ عن وقته المتعارف

مهلة، فقال بعض أهل العلم هناك للمجتمعين: إن الأستاذ المصري ليس من عادته التدريس في هذا اليوم الجمعة، ثم التفت إلي، وقال لي: لا يتفرق هذا الجمع عن غير فائدة، وعندما سمعه أولئك المتجمعون، وهو يقترح عليّ أن أقوم لهم مقام ذلك الأستاذ، انقلبوا إليّ، وأكدوا رغبتهم في سماع بعض الأحاديث، فوقفت وقفة المتردد، حتى تقدم الأديب السيد السعيد أحد الشبان الذين صدروا من مدارس الآستانة، وقال لي مخافتاً: إني أعرف الأستاذ المصري يقرئ يوم الجمعة، فكان هذا الإعلام عذراً فاصلاً للتخلص من حرصهم الشديد.

*** رسالة «الحرية في الإسلام»:**

واجهت ناظم باشا، وهو الوالي بالشام في ذلك الحين؛ للتفاهم معه في حاجة تخص العائلة، فكانت التحية بيننا أولاً إشارة باليد، ثم تقدم الفاضل السيد محمد بن شطه الجزائري ليترجم بيني وبينه، وكانت المخاطبة بينهما باللسان الفرنساوي؛ إذ كان لا يحسن النطق بالعربية، وذكروا أنه يقرأ بها، ويفهم جيداً، وقال له السيد محمد بن شطه في التعريف بشأني: هذا مؤلف رسالة «الحرية في الإسلام»[1]، وأخبرني أنه كان قد اطلع عليها، فنهض قائماً، ومد يده لمصافحتي، وأعطى عبارة في الشكر على تأليفها.

*** حفل علمي:**

حضرنا حفلة وداع التلامذة: محيي الدين القضماني، وسعدي عرابي، وسعيد الرشاش، حين عزموا على الرحلة للتعلم، فافتتح السيد محمد علي بخطاب بيّن فيه الغرض من الاحتفال، وتلاه الأمير عارف الشهابي بخطبة

---

(١) انظر كتاب الإمام: «محاضرات إسلامية»، وهو يضم هذه المحاضرة.

أتى فيها على فوائد البعثات العلمية، ثم خطب تلميذ يقال له: «مردم» في التعليم بمدارس «سويسرة»، ثم خطب السيد مصطفى أخو الأمير عارف في الزراعة ومنافعها، ثم ألقى أخونا المكي بن الحسين[1] قصيدة في فضل العلم، ومما قاله فيها:

ومن برح الأوطان في طلب العلا ... لدى الناظر السامي هو الرجل الحرُّ

بني الشعب هبّوا للمعارف إنها ... فخاركم الأعلى فلا عدم الفخرُ

وتلك كنوز لا من التبر صنعها ... وهل ساد عن علم يزين الورى تبرُ

كذا الجهل وزر في الأنام وإن زهت ... معارفهم يوماً فقد وضع الوزر

وتلاه السيد صبحي الحسيبي، وخطب في العلم والأغنياء، ثم قام الشيخ عبد الرحمن القصار، وتلا قصيدة جيدة يقول فيها:

رد منهل العلم الصحيح لترتوي ... واصدره كي يروى بك الظمآنُ

فالعلم غصنٌ والمدارس جنة ... تزهو وأنت بروضها رضوان

يا أيها التلميذ جدّ وغداً تكو ... ن معلماً ترقى بك الفتيان

ثم ارتقى أحد الحاضرين إلى مرتقى الخطابة، وأوهم أنه سيقوم بخطبة كما قام الخطباء قبله، حتى التفت إلى التلامذة، وقص عليهم: أنه كان رأى في جريدة كذا: أن ملك الجابون[2] أرسل طائفة من التلامذة ليتعلموا بأوربا، فلما عادوا إلى وطنهم، اقترح عليهم الملك أن ينشئوا له باخرة، فنظر بعضهم إلى

---

(١) العلامة اللغوي المشهور، وهو شقيق الإمام، ولد في تونس عام ١٣٠٦هـ - ١٨٨٦م، وتوفي بها عام ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م، وترك مؤلفات لغوية قيمة.

(٢) ملك اليابان.

بعض، فكرر عليهم عبارة الاقتراح، فقالوا: لا يمكننا صنع البواخر إلا بحضور أحد أساتذتنا، فأمر بصلبهم؛ ليكونوا عبرة لغيرهم من التلامذة، فلا يرجعون من تعليمهم حتى يبلغوا ما بلغت الأساتذة، ثم أقبل على التلامذة الثلاثة، وقال لهم: وأنتم أيضاً إن عدتم إلينا غير قادرين على العمل، فإنا نشنقكم، ونزل فاهتز النادي ضحكاً.

* **احتفال علمي بتوزيع الشهادات:**

ودعينا إلى الحضور باحتفال في مدرسة قرب الجامع الأموي أقاموه لتفريق الشهادات على تلامذتها. حضر هذا الاحتفال خلق كثير، وطائفة من العلماء وأرباب المناصب، مثل: الشيخ القاضي، والشيخ المفتي أبو الخير، والسيد نقيب الأشراف، وكان على جانب اليمين مني الشيخ صادق الميداني أحد العلماء الأذكياء، يجاذبني المحادثة والملاحظة في مظاهر الاحتفال، ويعرب لي بعض ما يلقونه من الخطب والمحاورات باللغة التركية.

ألقى التلامذة خطباً بالعربية، ثم التركية، ثم الفرنسوية، وأنشدوا قصائد حماسية؛ كقصيدة ابن سناء الملك التي يقول في طالعها:

سواي يهاب الموت أو يرهب الردى   وغيري يهوى أن يعيش مخلدا

ثم عقدوا محاورات طريفة، منها: محاورة جرت بين تلميذين في التفاضل بين العلم والمال، ونصبوا تلميذاً ينظر في حججهما، ويتولى فصل الخلاف بينهما، وبعد أن نفض كل منهما ما في كنانته، قضي بتفضيل العلم على المال؛ فإن المال من نتائج المعارف.

ومن اللطائف في هذه المحاورة: أن التلميذ الذي كان يفاضل عن المال قال لمفضل العلم بعد فصل القضية: أستمنح منك العفو؛ فقد كنت أنازعك

وأنا على خطأ، فقال له التلميذ الحاكم: لا تسأله العفو؛ فإن المجادلة لم تكن بين شخصيكما، وإنما كانت جارية بين الحق والباطل.

ومنها: محاورة انعقدت بين تلميذين في المفاضلة بين السيف والقلم، أحدهما ينطق بلسان القلم، والآخر يفاخر بلسان السيف، وبعد أن توسعوا في أطراف المحاورة بجلب الأدلة والشواهد؛ كقول الناطق بلسان القلم:

ولي قلمٌ في أنملي إن هززته ... فما ضرّني ألاّ أهز المهنّدا

وقول المفاخر بلسان السيف:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

فصل الحاكم المفاخرة بتفضيل القلم على السيف، وقال تنفيذاً للحكومة: قم أيها السيف وقبل رأس القلم.

ووقعت بعد هذا محاورة باللسان التركي بين تلميذين مثّلاً فيها أساليب التعليم العتيقة والحديثة.

*** الأستاذ أحمد كرد علي:**

وممن لقيناه من الأدباء، فتهلل منبسطاً لهذا اللقاء: الفاضل المهذب السيد أحمد كرد علي صاحب «جريدة المقتبس» الزاهرة، وقد نشرت هذه الجريدة تقريظاً مطنباً في الرسائل: «الحرية في الإسلام»، و«الدعوة إلى الإصلاح»، و«حياة اللغة العربية»[1]، وقالت في صدر هذا التقريظ: «تنم معظم تآليف التونسيين الأخيرة على فضل علم وأدب، وإن خاصتهم لا يؤلفون في الغالب إلا إذا اعتقدوا، واعتقد الناس فيهم الكفاءة العلمية إلخ».

---

(١) انظر كتاب: «دراسات في العربية وتاريخها» للإمام.

*** أثر حياة الأمير عبد القادر:**

وممن زارنا وزرناه: العالم الشيخ السيد عبد الباقي المفتي المالكي، وقد جذبتنا طبيعة الاجتماع به إلى الخوض في أثر حياة الأمير عبد القادر ـ رحمه الله ـ؛ حيث كان هذا الفاضل من أصهاره، ومررنا في حديثنا على أن هذا الأمير قد ساعده القدر على أن توفر لديه من الشهرة بخصال كاملة ما عزّ أن يتفق لغيره من فضلاء عصره، فترى له كتائب ومجالس تنظمه في سلك العلماء، وسخاء يقف به في صف ذوي السماح، ومصانعة تنظر منها إلى مقدار غوصه في غامض السياسة، ومواقع يدخل منها إلى فضيلة الإقدام، وقريض يرفع في نوادي الأدب ذكراً، ونثرنا في هذا البساط جوهرة قوله في مقام الحماسة:

ومن عادة السادات بالجيش تحتمي ... وبي يحتمي جيشٌ وتحرس أبطالُ

ولوحظ في هذا: أنه وارد على خلاف النظامات الجارية في الحروب؛ فإن الرئيس لا يضع نفسه في موقع أمام الجيش؛ حذراً من أن تصيبه القاضية، فيختل النظام بعده، وينتشر في عظام قومه الفشل، ولكن ميدان الحماسة والفخر أوسع مجالاً من ميدان الحروب وتدابيرها.

*** درس الأستاذ زين العابدين بن الحسين:**

حضرت في اليوم الثامن والعشرين من رمضان لدرس ألقاه أخونا زين العابدين بن الحسين، ختم به دراسة كتاب «الأربعين النووية» بجامع «التوبة»، وحضر من الأساتذة: الشيخ عطاء الكسم، والشيخ يحيى القلعي، والشيخ محمود، وكان هؤلاء الأساتذة قائمين في العشرة الأخيرة من شهر الصوم بسنّة الاعتكاف في هذا الجامع، وقال لهم أحد الفضلاء في محاورة بعد الدرس: قد شغلناكم وأنتم عاكفون، فقلت له: يقول أبو بكر بن العربي: إن المذاكرة في

المسـائل العلمية من قبيل الطاعات الملائمـة لمقصد الاعتكاف، وكان هذا الجامع ـ كما قال ابن خلكان ـ خاناً يعرف بابن الزنجاري، وقد جمع أسباب الملاذّ، ويجري فيه الفسـوق والفجور، فقالوا للملك الأشـرف: إن مثل هذا لا يليق أن يكون في بلاد المسلمين، فهدمه، وعمره مسجداً جامعاً، وسمّاه الناس: جامع التوبة؛ كأنه تاب مما كان فيه.

ومن المسائل التي تعرض لها صاحب الختم: حكم القيام للوارد على المجلس؛ لأنه عادة يبالغ أهل المشرق في الاحتفاظ بها إلى أن يعيدوا القيام للرجل الواحد في المجلس الواحد ما تكرر دخوله، وقرر ما بسطه القرافي في «فروقه»، وانفصل على أن القيام قد يتعين إذا أدى تركه إلى انكسار خاطر، وانصداع شمل ألفة. وأنا أعهد لأبي بكر بن العربي في كتاب «الأحكام» تفصيلاً آخر؛ فإنه بعد أن ساق الأحاديث الواقعة في هذا الغرض، قال: وهذا راجع إلى حال الرجل ونيته، فإن انتظر ذلك، واعتقده لنفسه، منع، وإن كان على طريق البشاشة والوصلة، فإنه جائز، وخاصة عند الأسباب؛ كالقدوم من السفر ونحوه.

*** ليلة العيد:**

كنت جالساً ليلة العيد بالمنزل يسامرني وإخوتي بعض الفضلاء، فذكر أحدهم قول الخطباء في العيد: «ليس العيد لمن لبس الجديد، وإنما العيد لمن خاف يومَ الوعيد»، فنظمت لهم في هذا الغرض بيتين، وحشروهما في زمرة محفوظاتهم، وهما:

ما العيد للشعب في تنميق أثواب ... ولا ملاقـاة إخـوان وأصـحابِ
وإنمـا العيـد أن تحيـا بـصائرهم ... بنـور هـدي وعرفـان وآداب

اتفق لنا السمر ليلة بمنزل الأمير علي باشا، ولاقينا من ابنه الأمير عبد القادر تجلَّة فائقة، ولم يقنع بجلوسنا في المنزل الذي يتلقى فيه عامة الضيوف، حتى تجاوز بنا إلى دار بعده، وأطلعنا على آثار للأمير جده ـ رحمه الله ـ، ولما نهضنا للرواح، وسايرنا مودعاً، اعترضنا أحد القرّاء وارداً منزل الأمير ليتلو لهم كعادتهم ما تيسر من القرآن، فرغب منا هذا الأمير الرجوع لسماع تلاوته، فرتل ذلك الحافظ نصيباً من الآيات بلهجة مؤثرة جداً.

*** من دلائل النبوة:**

زرنا يوم العيد الأمير عبدالله بن الأمير عبد القادر، واحتفل المجلس بطائفة من أهل العلم، فجرت محادثات علمية دينية يأخذ أطرافها نظر ذلك الأمير الفاضل، وقرر الشيخ السعيد الزواوي في هذا المجلس: أن فيما يظهر له من دلائل النبوة: قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لا نبي بعدي»، وذلك لأنه ثبت أنه ـ عليه السلام ـ في أنهى درجة من الحكمة، وهذا يعترف به كل من ألقى نظره في أقواله وسيرته، ولو لم يعتقد برسالته، والرجل الحكيم يتحاشى أن يقضي على المستقبل بعبارة قاطعة؛ إذ لا يدري ما تلده الأيام، وتبرزه للناس من تصرفات الأقدار التي تنكث أقواله، وتحل عقد ما تنظمه من الشيعة والأتباع. فإقدامه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على هذه العبارة الفاضلة، مع ما مر من تلك القرون المتطاولة، ولم يظهر في الوجود ما ينقضها، بحيث لم يدّع أحد منصب النبوة وله شبهة في ادعائه، دليل على أنه إنما ينطق عن وحي سماوي ينزل به الروح الأمين على قلبه المنير.

فقلت له: وأنا أيضاً مما أعضد به إيماني ما جاء في القرآن من التشابه؛ فإني كثيراً ما أقول في نفسي: لو كان هذا القرآن من بشر يزعم الرسالة، لتحرى فيه العبارات الصريحة في العقائد التي يدعو إليها، واحتفظ غاية جهده أن يسوق

فيه ما يشتبه على الأنظار، ولا يصح الاعتقاد بظاهره، فورود الآيات المتشابهات في أثناء المحكمات، إنما يكون لحكم غامضة لا تخطر في عقول البشر.

والعلماء الذين بسطوا شيئاً من تفاصيلها؛ كالفخر الرازي، إنما اهتدوا إلى البحث فيها بعد أن اطلعوا على المتشابه، واعتقدوا بأنه لا يأتي في كلام الله إلا لأسرار بديعة، ولو لم ترد هذه النصوص المتشابهة، لما خطر على عقولهم تلك الحكم المقتضية لاندماجها في سلك المحكمات.

وقد قرروا في جملة هذه الحكم: أن من مقاصد الإسلام: الإذن للعقول أن تسرح في النظر، وتنبسط في الاعتبار، فكان من وسائل هذا: أن وردت في الشريعة أقوال لا يفهم المراد منها لأول سماعها، حتى يضطر السامع لعمل البحث، وإجالة الفكر في الوصول إلى ما يراد منها، وفي هذا تمرين للعقول على النظر والاتساع في الفكر، وإذا تعودت العقول بطبيعة التفكر والنظر، عافت الجمود، واستقذرت التقليد في معتقداتها.

وجرى في هذا المجلس حديث: «كما تكونون يولّى عليكم»، فسقنا على هذا: أن أبا بكر الطرطوشي قال: بلغني هذا الحديث، فأخذت أفحص عنه من جهة السند، فمر علي وأنا أتلو قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾[الأنعام: ١٢٩] الآية. فاكتفيت بها عن الحديث. وهذا الحديث ذكره السيوطي في «الفتاوى الحديثية»، وقال: رواه ابن جميع في «معجمه»، وذكر ابن الأنباري في بعض كتبه: أن الرواية: «تكونوا» بحذف النون، وتكلم هنالك على وجه إعرابه.

*** زيارة القبور:**

ومن عوائد الشام: أنك ترى زائرات القبور يوم العيد يحملن غصوناً

ذات أوراق طرية ليضعنها على القبور، باعتقاد أنها تنفع الموتى كما تنفعهم الصدقات، ويستندون في هذا إلى حديث: غرز النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ عودين من جريد على قبر من لا يستتر من بوله، ومن كان يمشي بنميمة، وقوله: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا».

وقد فاوضني في هذه العادة أحد الفضلاء من الأرناؤوط يوم العيد، وذكر الحديث، فقلت له: إن غرز النبي ﷺ للعود الرطب لداعٍ غيبي، ومعنى يختص به، مثل أن تكون مدة بقاء الطراوة فيه غاية لما وقع فيه الطلب من تخفيف العذاب عنهما.

وما يفعله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لعلة غائبة عن أبصارنا لا ينبغي لنا أن نقدم إلى فعل مثله؛ فإن العلة غير متحققة بالنسبة لنا، ونظير هذا: حديث نزوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ والصحابة معه بالوادي، واستمرار النوم به إلى أن طلعت الشمس؛ فإنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمر بالرحيل، وقال: «إن هذا واد به شيطان»، فلا يصح لنا أن نقيس عليه حالتنا، حتى إذا طلعت الشمس علينا، ونحن بواد، تحاشينا أن نصلي فيه؛ لأن العلة التي استند عليها ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا طريق لنا إلى معرفتها كما قال أبو الوليد الباجي.

وبعد هذه المفاوضة اطلعت على إنكار أبي بكر الطوطوشي لهذه العادة، ومتابعة صاحب «المدخل» على هذا الإنكار.

*** محاورة مع الشاعر خير الدين الزركلي:**

ومن أدباء دمشق: الشاعر المجيد السيد خير الدين الزركلي، رأيته ينحو في شعره نحو فلسفة المعري، فخاطبته بقولي:

يا محضراً في برد شعر للنهى روح المعرّي كي تغازل بالحِكَمْ

من علّم الـشعراء أن يستحـضروا روحاً تردّى جسمها ثوب العَـدَمْ

فأجابني بقصيدة من شـعره البليغ تحتوي على نحو ثلاثين بيتاً يقـول في طالعها:

من للقريض إذا دعـوت وللقلـم والشرق صار به السبات إلى العدم

ألـف الـسهادَ النـائمون بـه كمـا ألف العلاءَ الناهضون من الأمـم

ثم يقول:

ولربّ ذي خطلٍ يلقـب عـصرنا عصر الرقي صحا فأنكر ما زعـم

ثم قال:

لـو أن فيـه أبـا العـلاء تحطمـت أقلامـه ولمـا شـدا، ولمـا نظـم

* **الشيخ عطاء الكسم:**

أهدى إليّ الشيخ عطاء الكسم من تأليفه رسالة في التوسل، وكتابة جمع فيها أصول المذهب الحنفي بأسلوب وجيز، وهذا الفاضل من أشهر علماء دمشق، وكان قد ابتدأ قراءة «صحيح الإمام البخاري» دراية، وانخرط في سلك درسه أخونا العروسي بن الحسين، وقدم له أبياتاً يقول في طالعها:

بـشرى فـشمس الهـدى تجلـت للفكـــر فـــي حلّـــة الجمـــال

* **قصيدة في تسمية حروف الهجاء:**

وأطلعني أحد الأدباء في مجلة شرقية على رسالة للخليل بن أحمد في تفسير حروف الهجاء عند العرب نقلت من مجموعة في العراق، فأنشدته أبياتاً من قصيدة لأبي عبدالله الهواري الأندلسي في تسمية هذه الحروف كنت ظفرت بها من مجموعة في رحلتي للجزائر سنة ١٣٢١هـ، وحيث كانت هذه الرسالة من

التآليف النادرة، وتشتمل على بعض معان لم نعثر عليها في كتاب «القاموس»، ولا في «لسان العرب»، ننقل ملخصها هنا، وإليك التلخيص:

(الألف): الرجل الفرد. (الباء): الرجل الكثير الجماع. (التاء): البقرة تجلب. (الثاء): العين من كل شيء. (الجيم): الجميل المغتلم. (الحاء): المرأة السليط. (الخاء): شعر الاست. (الدال): المرأة السمينة. (الذال): عرف الديك. (الراء): القراد الصغير. (الزاي): الرجل الأكول. (السين): الرجل كثير التنحنح. (الشين): الرجل الكثير النكاح. (الصاد): الديك المتمرغ في التراب. (الضاد): الهدهد يرفع رأسه ويصيح. (الطاء): الرجل الشيخ الكثير الجماع. (الظاء): ثدي المرأة إذا انثنى. (العين): سنام البعير. (الغين): الإبل الواردة. (الفاء): زبد البحر. (القاف): المستغني عن الناس. (الكاف): الرجل المصلح للأمور. (اللام): الشجرة الناضرة. (الميم): النبيذ. (النون): السمك والدواة. (الهاء): أثر اللطمة في خد الظبي. (الواو): البعير ذو السنام. (الياء): النار.

وفي الجزء الثاني من «أدب اللغة العربية» لجرجي زيدان: من الكتب التي تنسب للخليل: كتاب في معاني الحروف في مكتبة ليدن، ومكتبة برلين.

أما قصيدة أبي عبدالله الهواري، فنقتطف منها أبياتاً؛ ليظهر أن هذه الرسالة كالشرح لها، وإليك المقتطف:

(الباء)

واحرص على المجد حرص البـاء حين يـرى

حـــسناء تفتنـــــه بـــــالمنظر الحـــسن

(الثاء)

وابحث على الثاء في كل الأمور فمن

رأى الحقائق أمسى وهو ذو فطنِ

(الجيم)

وكن إذا الخطب مثل الجيم جدّ به

طول المسير ولم يتعب ولم يَهِنِ

(الحاء)

لا تخدعنك حاء لا حياء لها

فإنما هي كالخضراء في الدمن

(الدال)

وإنما الحسن في دال منعمة

حبيبة زانها صمت على لسن

(الذال)

لا تخل نفسك من مجد تماز به

فالديك لولا وجود الذال لم يبنِ

(الزاي)

واقنع ولا تك مثل الزاي من رجل

إذا رأى الأكل يسعى سعي مفتتن

(الشين)

وانهــل إلــى الخيــر مثــل الــشين لاح لــه

وجـــه وَقَـــدٌّ كمثـــل البـــدر والغـــصن

(الصاد)

وكــن مــع الــدهر مثــل الــصّاد يقنعــه

عفــر التــراب ولقــط الحــب فــي الــدمن

(القاف)

والــزم غنــى الــنفس إن القــاف شــرّفه

غنــاه عمــا بأيــدي النــاس مــن مــنن

(الكاف)

مــا أسـعدَ الكـافَ بـين النـاس مـن رجـلٍ

يراقـــب الله فـــي ســـرٍّ وفـــي علـــن

(الميم)

فــإن دنيــاك مثــل المــيم تُــسكر مــن

صَـــبا إليهـــا وإن أمـــسى أخـــا فطـــن

(الهاء)

وأدّب الـــنفس لـــولا اللطـــم فـــي أدب

لــم يــزه بالهــاء خــد الــشادن الحــسن

(الياء)

لا تـــركنن ليـــاءٍ لا أمـــان لهـــا

واطلـــب جنـــاب كـــريم الـــنفس مـــؤتمن

* **لقاء مع رجالات دمشق:**

ولاقينا من فضلاء المدينة الناهضين: السيد شكري العسلي أحد مبعوثيها، والأمير الطاهر حفيد الأمير عبد القادر، والسيد محمد عابدين المعاون بهيئة المحاسبة، فكشف لنا لقاؤهم عن كرم خلق، وألمعية مهذبة، وقد زارنا الأخير في إحدى ليالي رمضان، ومما دار في السمر هذه الليلة: أن المناظرة في فروع الدين مع من لا يعتقد بصحة أصوله ليس لها كبير فائدة، وإنما تبدأ المناظرة مع من أرادها في الأصول والعقائد؛ فإنه يجد فيها الناظر الأداة المبكتة، والبراهين المسكتة، فإن لم تقع موقع التسليم، كانت المباحثة في الفروع غير مجدية، وإذا أخذت من نفسه مكاناً راسخاً، ذعن بعد ذلك لكل ما جاءت به الشريعة من التكاليف، ووضعها على كاهل الطاعة، ولهذا لا نجد نصوص الشريعة تتبسط في حكم التكاليف العملية وأسرارها، كما تنبه على دلائل العقائد الواجبة، بل تلقيها إلى المكلفين مجردة عن حكمتها في الغالب؛ فإن من يعتقد بأنها تنزيل من حكيم حميد، يلزمه الامتثال لأمرها، ولا يتوقف عن العمل بها إلى أن يدرك ثمرتها، كما قال تعالى في الرد على من قالوا: إنما البيع مثل الربا: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[البقرة: ٢٧٥].

فلم يزد على أن نسـب تحريم الربا إليه، دون أن يذكر له حكمة تفرق بينه وبين البيع، وفيه إيماء إلى أن معرفة الحكمة من الأحكام التي تضعها الشـريعة السماوية غير لازمة، وليس القصد من هذا التقرير سـد باب النظر

في الحكمة من قوانين الشريعة؛ فإن الاطلاع على ذلك مما يزداد به القلب اطمئناناً، ويقوى به اليقين ارتباطاً، ولكن الغرض الذي نرمي إليه: أنها على فرض أن نبحث عن حكمة عمل شرعه الدين، ولم يظهر لنا سره واضحاً، فإنا نفوض العلم بحكمته إلى شارعه الذي قام الدليل على أنه عزيز حكيم، ولا يكون عدم اطلاعنا على الحكمة خادشاً في الاعتقاد بصحته، وانطباقه على رسم الصواب.

فإذا ناظرنا أجنبي عن الدين في عمل مشروع، فلا يأخذنا الخجل، أو تحوم حول قلوبنا الشبهة، إذا قصرنا أن نكشف له عن حكمة جلية تقع لديه موقع القبول.

*** فراق دمشق:**

عزمت على السفر من دمشق يوم الاثنين في شوال[1]، وزارنا قبل أن أبارح المنزل بساعة الفاضل الأمير عبدالله، يرافقه السيد الصادق المحمودي التونسي، وكان هذا الاجتماع آخر عهد بلقاء أولئك الفضلاء.

امتطيت الرتل، فأخذ يرغو ويضع، ويحمل ويضع، وكان فراق العائلة قد أخذ يلسع الحشاشة بذبالة ناره حتى قلت:

لئن صعدت حرّاء أنفاس راحـلٍ	رمى شمله قوس من البين راشقُ
فمالي أراك اليوم يـا رتـلُ ناحبـاً	وشملك إذ تطوي الفلا متناسـقُ

*** المبيت في المريجات:**

وحيث غادرنا دمشق، وما برح بعض الأمراض يتعهدها، قضينا أربعة

---

(١) من عام ١٣٣٠هـ.

أيام في «المريجات» بلد من جبل لبنان اتخذت محجراً صحياً لمن يرد من نواحي دمشق، ولو أني لبثت هذه المدة عن داعية خاطر مني، لحسبتها في أيام الارتياض بمشاهدة المناظر الزاهرة.

وممن قاسمني في هذه الإقامة، وقد سبقني إليها بيوم: الذكي السيد إبراهيم المستنطق بعدلية بيروت، وكان يسايرني في شعاب هذه القرية التي هي على قمة جبل، ويطوف بي على ما حولها من الرياض الرائقة، والأنهار الدافقة، وربما جلسنا على ربوة مطلة على مظاهر لا تسأم العيون من التمتع بمرآها الجميل، وكان في خلال ذلك المطاف يطارحني الأدب، وينشدني من شعره باللسانين العربي والتركي، وقلت في هذه الإقامة:

بين «المريجات» ما تحلو مناظره   للطرف لكنّ نفسي سامها ضجرُ
والنفس تضجر من دار المقام على   رغم وإن كان من سمّارها القمـر

انطلقنا من «المرايجات» يوم الجمعة، وصعد من بعض مواقف الرتل رجل من أهالي لبنان يقارب في نطقه العربية الصحيحة، وكان هذا الرجل يلاحظ عباراتي، ويتفقدها من حيث الإعراب، حتى قال لي في آخر المحادثة، عندما أزمع على الانصراف: «هل جميع التونسيين يلفظون بالعربية؟»، فقلت له: «لا يتفاوتون في قرب ألسنتهم منها، وإنما الذين ينسجون على منوالها، ويتحرون أساليبها هم طوائف أهل العلم والأدب».

* **محاضرة شفيق المؤيد:**

وصل الرتل إلى محطة بيروت، فألفيت السيد إبراهيم الذي كان يصاحبنا بالمريجات في انتظارنا، فقصدنا إلى خان يسمى: «قصر البحر»، وهذا القصر من أجمل المنازل من حيث التنسيق والموقع، ومن أهم ما روعي في مرافقه:

بيت فسيح، فيه زرابي مبثوثة أعد لأداء الصلوات، وطالعت في أحد جدران مقعده العام معلّقة، رسمت بها قصيدة للشاعر الشهير السيد معروف الرصافي في وصف هذا القصر، يقول في طالعها:

لعمرك إن قصر البحر قصرٌ ... به يسلو مواطنَه الغريبُ

وتمتلئ العيون به ابتهاجاً ... إذا نظرت وتنشرح القلوبُ

ثم قال:

كأن الموج في الدلتا رجالٌ ... وهذا القصر بينهم خطيب

تخاطبهم مبانيه فيعلو ... من الأمواج تصفيق مهيب

وما انفردت به بيروت حسناً ... ولكن القصور بها ضروب

أعلمني السيد إبراهيم بأن السيد شفيق المؤيد سيلقي محاضرة في هذه الليلة بنادي جمعية «الحرية والائتلاف»، فذهبنا عند وقتها المحدود، يرافقنا السيد محمد صبحي بن الشيخ عبد الرزاق العطار، فتبوأنا مكاناً في الطبقة العليا من النادي، وأخذ الناس ينسلون فرادى وزمراً إلى أن أفعموا الطبقتين، وغصّ بهم المجلس على سعته، فأقبل السيد المحاضر تحف به طائفة يترنمون بأنشودة حماسية من نظم السيد سليم الجزائري إلى أن ارتقى على منصة الخطابة، فتقدم السيد عبد الغني العروسي صاحب جريدة «الائتلاف العثماني»، وألقى خطاباً أعلن فيه بموضوع المحاضرة، وأدبج فيه نبذة في التعريف بشأن المحاضر، ومن جملة ما قصه في حقه: أنه كان أحد مبعوثي الشام، وأنه خرج يوماً من مجلس «المبعوثان» بالآستانة، فبسط إليه أحد الرجال يده ليصافحه، فقبض يده، وقال له: «لا أصافح يداً خانت أمتها».

كان موضوع المحاضرة: الدعوة إلى حزب الائتلافيين، ونكث اليد من حزب الاتحاديين، وقد تذكرت في هذا المقام قول معروف الرصافي:

فهم كالبحر يعطب راكبوه ويسلم منه من لزم الضفافا

ولكنه أتى فيها على تفاصيل، وضرب لها أمثالاً من التاريخ، فأنبأتْ بسعة اطلاعه في الأحوال الداخلة والخارجة.

* مفتي بيروت الشيخ مصطفى نجا:

زارني إلى قصر البحر فضيلة العالم الشيخ السيد مصطفى نجا المفتي ببيروت، يصاحبه بعض أهل العلم، ودارت في هذا المجتمع مسائل جرنا إليها سؤال بعض الحاضرين من ذوي التجارة، منها: حكم التعاقد مع شركة تأمين البضائع، فصرح الشيخ المفتي بأن الشريعة الإسلامية لا تبيح الدخول في هذه العقدة؛ إذ لا شبهة أنها من قِبل أكل أموال الناس بالباطل، فقد لا يطرأ على البضاعة تلف، فيكون المال الذي يدفعه صاحبها قد ضاع عنه بغير عوض، وإذا وقعت في متلفة، يكون قد أخذ قدراً من المال عن غير مقابل، وهذا هو الغَرر البين، والربا الفاحش الذي حرمته الشريعة تحريماً مغلظاً.

وقصّ علينا الشيخ المفتي نبذة من وقائع قصد بعض الرجال أن يخرقوا بها سياج المروءة والدين، فقام الشيخ إلى من بيده الأمر، وخاطبه خطاب الرجل الغيور، فكان لحمايته عن حرم المروءة والإنسانية فائدة وتأثير.

وذكرت لهم بمناسبة ما قص الشيخ المفتي: أن علي باشا أحد الأمراء بتونس، كان يستدعي إلى مجلسه أعيان العلماء، وفي زمرتهم الشيخ حمودة الريكلي أحد علماء ذلك العصر، فقال لهم الباشا يوماً: إني أكرم مثوى العلماء، وأرفع مقامهم أن يسوم حقوقهم خسف، كما كان يلحقهم فيما

سـلف، فشـكر له بعض الحاضرين هذه الميزة، ولـم يستطع الشيخ حمودة الريكلي أن يطوي حقيقة خطرت على ضميره الحـر، فقال له: الوجـه في هذا: أن من تقدم من العلماء كانوا يعترضون الأمراء فيما يسوقهم إليه عامل الاستبداد، فيطفئونهم حتى لا تكون حياتهم نوراً يكشف عن مساوئ أعمالهم، ونحن ـ أيها العلماء ـ قد ألقينا السلم، وتغاضينا عن كل سيئة، فبأي عذر تهضم حقوقنا، أو تنتهب أعمارنا؟! وقد وقع لهذه الموعظة أثر بالغ في نفس الباشا، فجازى الشيخ بالمكرمة، وأعاده إلى منزله على مركبه الخاص به، وعدّت هذه الواقعة منقبة فائقة للعالم والأمير.

وممن احتبك به هذا المجلـس، وأخذ بطرف المحاورة فيه عن فكرة متنبهة: السيد نصوحي بك العظم من بيوت الفضل بدمشق، وله إقامات بمصر وعلاقات مالية، وكان قد شهد بعض دروسنا التي نلقيها بالجامع الأموي، وحدث الشيخ المفتي بأنه يراها دروساً مفيدة؛ حيث كانت تتحرى في بيان مقاصد الشريعة الطريقة المعتدلة.

*** الشيخ راغب التميمي:**

ولاقيت الشيخ راغب بن مصطفى التميمي أحد الأعيان بنابلس، وكان هذا الشيخ قاضياً بمصراته، ومر على الحاضرة منذ سنتين، كما لقيت ابنه زكي الدين في طائفة من وجهاء نابلس، وأقاموا لنا من مجاملتهم وثنائهم على صديقنا السيد محمد الصادق الجبالي التونسي دليلاً صادقاً على ما يتردد على أسماعنا من أن أهل هاتيك البلاد يلاقون الغريب بوجوه منبسطة، وصدور راضية.

دخلت إلى مطعم يرافقني السيد صبحي العطار، فجلسنا حول السفرة، وكان بمقربة منا شيخ متعمم يحادث صاحب المطعم، ويلاحظنا أحياناً، ولما

وقفنا للانصراف، قام ذلك الشيخ، وناجى رفيقي مستكشفاً عن أثري، فأعطاه خبره، فأقبل عليّ مسلماً، وقال لي: كنت أصغي إلى حديثكما، فراقني بساط المحادثة، فهممت أن أدنو منكما، ولكني خشيت أن لا يقع دخولي في بساط حديثكما موقع الارتياح لديكما؛ حيث لم يسبق رابط التعارف، ثم عقد موعداً على زيارتنا مساء بعد أن عرفني رفيقي بأنه الشيخ عرفات المصري أحد المعلمين بمدرسة في رأس بيروت.

*** بين الاستبداد والعدل:**

دعيت للحضور بحفلة في إحدى المدارس لتفريق الشهادات على التلامذة، وكان رفيقاي في الذهاب والحضور: الشيخ عرفات، والسيد إبراهيم المستنطق بالعدلية، ولم يقع في هذا الاحتفال سوى أن شخَّص التلامذة رواية تضرب المثل لرذيلة الاستبداد المطلق، وفضيلة العدل، وقد ضحك الحاضرون لكل من الدورين، ففكرت في سر انبساطهم لتمثيل الاضطهاد والتعسف، وشأن النفوس الحرة أن تقطب لمنظرها الفظيع، فلاح لي في وجه ذلك: أنهم قد تصوروا من خاتمة الرواية انقلاب ذلك المشهد التعيس إلى نظام وعدالة، وكذلك الرجل يشاهد الباطل يعبث في مجمع من مجامع الحقيقة، وقد بصر بناصر الحق حين التفت إليه، وتأهب لدرئه عن مكان الجد، فإنه ينبسط ضاحكاً مما سيدحض هذا الباطل، حتى يستفيض من سكرة المتصابي، أو غشية المختبل.

كنت أمرّ في مناهج البلد، ومما أراه مرسوماً على بعض جدرانها لفظ: «إلى العلم»، ودخلت إلى جامع قرب محل الحكومة، فرأيت معلقة بإزاء محرابه كتب فيها بخط متسع: «اطلبوا العلم».

* **بحث في الحرية:**

جاذبني السيد إبراهيم إلى البحث في الحرية، فقلت: الحرية يتطوع بها الرؤساء العادلون إذا عافت نفوسهم استعباد من ولدتهم أمهاتهم أحراراً، وقد تتبرج الأمة في بردها الشريف، حين يستولي عليها الشعور، وتتغلب عليها المعرفة بواجباتها، سنّة الله في سير الأمم؛ فإن العلم والأدب يثبت في نفوسهم كبر الهمة، وإباية الاضطهاد، ويرفعها إلى مكانة واحترام في نظر الماسكين على أمرهم، فيعتدلون في سياستهم، ويغلّون يد من يعمد إلى جرح عواطفهم؛ محافظة على أن تكون قلوب رعيتهم الواقية ماسكة بطاعتها، راضية عن الإقامة تحت سلطتها.

* **نفحة شعرية:**

تجولت مع الأديب السيد إبراهيم السيد في بعض بساتين ذات أشجار وأنهار، وما برحنا نتطارح الآداب التي لها مساس بمقام الأشجار، حتى ذكرت له: أني كنت سمعت في دروس بعض أساتذتنا أيام التعلم بيتين، وهما:

عذ بالخمول ولذ بالذل معتصماً ... بالله تنج كما أهل النهى سلموا
فالريح تحطم إن هبت عواصفها ... دوح الثمار وينجو الشيح والرتمُ

فحولتها بعد انتهاء الدرس إلى قولي:

ذر الخمول ولذ بالعز معتصماً ... بالله كي تتوقى جيدك القدم
فالشيخ يحطمه دوس الثعالب إذ ... لم يعل هاماً وينجو الضال والسَّلَمُ

فاهتز لهما قائلاً: تحطيم الرياح، ولا وطئات الثعالب.

* **رسالة للشيخ البوسي:**

أطلعني من يد الشيخ عبد الرحمن أحد علماء بيروت على رسالة للشيخ

البوسـي في الفرق بين العرضي والذاتي بقلم مغربي، فإذا هي جامعـة في الموضوع، وأول ما قابلني منها: أن تعريف الإنسان بقولهم: الحيوان الناطق للفلاسفة، وهم لا يقولون بوجود الملك، فلا يرد عن التعريف أن فصله غير مانع من دخول الملائكة.

*** الشيخ سيدي محمد المكي بن عزوز:**

كان خالنا العلامة القدوة الأستاذ الشيخ سيدي محمد المكي بن عزوز قد كتب لي كتاباً من الآستانة بثّ في مطويه الشوق إلى اللقاء، وقد مضى لنا في مدة فراق فضيلته خمس عشرة سنة، فانتفض الفؤاد اشتياقاً إلى زيارته المؤكدة بواجب القربى، وحقِّ الدروس التي كان قد ملأ أسماعنا بجواهرها الثمينة.

عزمت على أن أعرج في إيابي على الآستانة، فعمدت إلى باخرة روسية، وفي حين ما صعدت على متنها، لقيت رجلاً عليه زي علماء الأزهر، وفي يده سِفر، فقلت له: ما هذا الكتاب الذي تنظر فيه؟ فقال لي: ديوان شاعر يقال له: مسلم بن الوليد، فقلت له: أول من أفسد الشعر العربي أبو تمام، ومسلم ابن الوليد. فقال لي: لعلك صاحب أدب، فقلت له: وفي بعض الأحيان يجيش به صدري، فانعقد التعارف بيننا، واستمرت المرافقة إلى الآستانة، وهو الشيخ أحمد بن كمال الغزي اللبابيدي، قرأ بالأزهر نحو سبع سنين، وتولى التدريس بمدرسة الكمال والنجاح في مصر، وحرر مقالات أخلاقية وعمرانية في جرائد كثيرة.

جمعت هذه الباخرة طائفة عظيمة من أهل العلم، ما بين أساتذة وتلامذة، فحصل لنا من محاضرتهم ولطفهم ما يكشف ضجر الاغتراب، ويسلي النفس عن معاهد أنسها، فمن هؤلاء الفضلاء: الشيخ راغب التميمي، وابنه السيد

زكي الدين، والسيد عبد الهادي من بلد الخليل، والسيد علي بن صالح من بلد إحدى القرى السورية.

وهذان الأديبان استقيا معارفهما من الأزهر، ثم من مدارس الآستانة، ولهما ذوق جيد في الشعر العربي، وفيما يصحبهما من الكتب: ديوان المتنبي، فكانا كثيراً ما ينشدان من قصائده، ويجري بيننا التفاهم في بعض أبياتها، وربما أمليت بعض انتقادات علقت عليها من قبل؛ كقوله في بعض أبياتها:

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى عدواً له ما من صداقته بدُّ

فإن لفظ الصداقة هنا ركِّب في غير نظمه؛ إذ الإنسان إنما يضطر في معاملة عدوه إلى مداراته، لا إلى صداقته التي يؤخذ في معناها الإخلاص بالضمير، فكان التعبير بالمداجاة أشد التئاماً بالمراد.

كنت جالساً على طرف من الضابور، فجاءني رجل عليه سمة أهل العلم، وخاطبني خطاب من سبقت له معرفتي، وقال لي: إني متشوق إلى لقائكم؛ حيث حدثني بخبركم الشيخ عرفات ببيروت، وهذا الرجل هو الشيخ كمال الدين بن كامل المغربي، أعلمني بأن جده تونسي، وأنه من عائلة درغوث الشهيرة بالحاضرة، وقد أخذ هذا الشيخ معارفه من الأزهر، واستولى خطة القضاء بالسويداء من ولاية الشام، ثم في القطيف من ولاية البصرة، ويقيم الآن بعيداً، ويرافقه في السفر أخوه السيد محمود بقصد استكمال معلوماته في الآستانة.

*** كلام على اللؤلؤ:**

ونثر في بعض المحاضرات الكلام على اللؤلؤ، وأطلعنا أحد الرفقاء على كتابة لبعض المتأخرين في التعريف بنشأته، فاقتبست منها ما يأتي: قال

القدماء: إن اللؤلؤ متكون من مطر ينزل في شهر نيسان، فتتلقى بعض قطراته الحيات، ويقع بعضها في الأصداف، فما وقع في أفواه الحيات، صار سماً ناقعاً، وما وقع في الأصداف، تبلور وصار لؤلؤاً، وقد عقد الشاعر العربي هذا المعنى بقوله:

أرى الإحسان عند الحر ديناً   وعند النذل منقصة وذمّا

كقطر الماء في الأصداف دُرٌّ   وفي جوف الأفاعي صار سمّا

وقال المحدثون في تكوين اللؤلؤ على ما ورد للعلامة الحوراني في كتابه: «الآيات البينات»: إنه يستخرج من أصداف حيوانات عجيبة الصنع والتركيب، تعوم في أول نشأتها على وجه الماء، وتغتذي، ثم تهبط الأعماق تسكن هنالك، وتحمل إليها اللجة الهواء والغذاء، ويتكون عليها الصدف من المواد الكلسية للوقاية من الأخطار، والدرُّ متولد في لحمها من مادة أصدافها عينها، وأعمقه مغاصاً أكبره حجماً. والجمهور اليوم على أنه ينشأ من تجمع رمل أو حيوانات ضارة تدخل الصدفة قسراً، فيفرز حيوانها مادة لزجة يغطيها بها، ثم تجمد وتتحجر.

ويذهب بعض العارفين: أن السبب الصحيح لإحداث اللؤلؤ إنما هو مرض يأخذ الحلز؛ بدليل أنه متى كان المغاص حسناً، تنمو فيه المحار كثيراً، وتبلغ حجماً عظيماً، وهي نقية ليس لسطحها الخارجي درن ولا ثؤلول، ولا نقوب تحدثها الديان، بل تراه ملساً جميلاً، يدل مجمع حاله على تمتع الحلز بالعافية، متى كان ذلك، ترى اللؤلؤ نادراً قليلاً، وأما إذا كانت الأصداف مشوهة الظاهر، متضخمة عند أسفلها، ملأى بالعقد والأدران، فهذه هي الأصداف الملأى باللآلئ الفاخرة، والدرر النادرة.

وقد وجد المحار اللؤلؤي في كثير من الأنهار المنحدرة من جبال بريطانيا وكندا، ولكنه دون اللآلئ البحرية جنساً وقدراً.

وأشهر مغاص واقع عند ثغور الخليج الفارسي، والبحر الأحمر، وشواطئ جزيرة العرب، والبحر الهندي، وأستراليا، وبناما، وكاليفورنيا، وفينزويلا، وجزيرة مرغريتا، ويختلف ذوق الناس في لونه، فالأوربيون يؤثرون الأحمر، والهنود وسائر من جاورهم يستحسنون الأصفر، وغيرهم وغيرهم.

*** مكانة العلم:**

عرض الكلام في شأن العلم، وكيف أدركت الأمم الشاعرة قيمته، فذكر بعضهم أن امرأة أميركانية ألّفت رواية، فاشتراها منها أحد أصحاب المطابع الأمريكانيين بثلاثة آلاف وسبع مئة وخمسين جنيهاً، وكذلك كانت الأمة الإسلامية قبل هذا تشعر بحقيقة العلم، وتمهد العقبات المعترضة في سبيل الطالبين؛ فقد حكى ابن السبكي في «الطبقات»: أن أبا نعيم الأصبهاني المتوفى في محرم سنة ٤٣٠هـ، لما صنف كتاب «الحلية»، وحمل إلى نيسابور حال حياته، اشتروه بأربع مئة دينار.

ذكرنا لهم: أن الشيخ ابن عرفة حكى في درس تفسيره: أن أحمد بن يوسف السلمي الكتاني قال: قلت لشيخنا ابن عصفور: لم أكثرت من الشواهد في شرحك للإيضاح على «كأين»؟ قال: لأني دخلت على الأمير أبي عبدالله المنتصر، فألفيت ابن هشام خارجاً من عنده، فأخبرني أنه سأله عما يحفظ من الشواهد على قراءة «كأين»، فلم يستحضر غير بيت «الإيضاح»:

وكأين بالأباطح من صديق يراني لو أصبت هو المصابا

قال ابن عصفور: فلما سألني أنا، قلت: أحفظ فيها خمسين بيتاً، فلما

أنشدته نحو العشرة، قال: حسبك، ثم أعطاني خمسين ديناراً. فمحاضرة هذا الأمير لأهل العربية في دقائقها واحداً بعد واحد، ومكافأته في مثل إنشاد البيت الواحد بخمسة دنانير، مما يتوجه بعزائم قومه إلى التسابق في طرق التعليم، ويشد رغبتهم في الاستقاء من موارده العالية.

* معنى كلمة المسجد:

ومما عرض في المذاكرة: أن بيت المقدس كان عند نزول قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١] خرب، وقال ابن عساكر في «تاريخه»: إن بيت المقدس حين فتحت كانت منقوضة، وإن عمر هو الذي أمر ببناء المسجد. وكان الجواب عن الآية: أن المسجد اسم للمكان الذي أعد للسجود، وليس من شرط إطلاق المسجد على المكان أن يكون محاطاً ببناء، وعلى إرخاء العنان، وتسليم اعتبار شرط البناء في هذا الإطلاق، فباب المجاز مفتوح، فقد كان قبل نزول الآية ذا بناء كما صار أمره بعد نزولها إلى إقامة جدرانه.

* ساعات في الإسكندرونة:

وقفت الباخرة بمرأى من طرابلس الشام، وفاتنا أن ننزل إلى داخل البلد؛ لما سبق في ظننا أن الباخرة لا تلبث المدة الكافية للتجول بها، ولكنها أقامت عشية وضحاها.

سارت الباخرة إلى أن وصلت مرساها إزاء إسكندرونة، فنزلنا للاستطلاع عليها، لبثنا فيها نحو ثلاث ساعات، ثم عدنا إلى الباخرة، وهذه البلد يحيط بها الجبل من جهة البر، ولغة أهلها العربية والتركية.

جلسنا على سطح الباخرة قبل أن تقلع، فطلع القمر من رأس الجبل، وبسط شعاعه على البحر، فأنفذ لنا منظراً يهز القرائح لنسج القريض، فأنشأ

الشيخ أحمد الغزي شطراً في الغزل، وطلب مني إجازته، فأجزته، واستمرت المساجلة إلى أن تألف منها نحو ستة أو سبعة أبيات، رسمها ذلك الأديب بورقة بقيت عنده، ومما قاله في هيئة القمر حين أخذ في الطلوع، وظهر نصفه فوق الجبل:

لاح شطر البدر من فوق الربى ولـه فـي البحـر تمثـالٌ أغـر

فاطمـأن اليـوم قلبـي إذ رأى رأي عـين كيـف ينـشق القمـر

ورأيت الباخرة الخديوية قادمة إلى المرسى والجبل أمامها، فقلت:

هذي السفينة تغري الموج جارية لمـستقرٍّ لهـا كـي تـدرأ الكلـلا

فـأذكرتني بمـسراها إلـى جبـل قول الخليفة: يـا سـارية الجبلا

بلغنا إلى «مرسين»، فنزلتها رفيقاً للشيخ مصطفى راغب، والشيخ سالم ابن عثمان أحد علماء يافا، والسيد محمود درغوث، فطفنا بأكثر مناهجها وبعض مساجدها، ثم آوينا إلى جامعها الكبير لأداء صلاة الجمعة، فأخذ قارئ مصري يرتل القرآن بأسلوب يستنبط الدمع من الآماق، ثم صعد الخطيب المنبر، فأحسن الخطابة، ومن جملة ما نطق به في الخطبة قوله: أيها المسلمون! ما بال الإسلام في نزول، وغيره في صعود؟! وما بال المسلمين في نحوس، وغيرهم في سعود؟! وما بال الشرع في عدم، وغيره في وجود؟!... إلخ.

ركب الباخرة من «مرسين» طائفة من العلماء، منهم: الشيخ أحمد بن محمد شكري، والشيخ ولي الدين بن والي، والشيخ علي رضا، فتعززت بهم اجتماعاتنا العلمية، وازدادت بهم رنة الأدب نغمات لذيذة.

* **التعصب للمذهب:**

دار الكلام على التعصب للمذهب، والذين يطلقون ألستهم في الازدراء

بالمذاهب التي لا يتقلدونها، هذا إنما يقع في الغالب ممن اكتفى بقراءة الفروع في مذهبه، فهو؛ لجهله بغيره من المذاهب، يحملها على ضعف المدرك، والرمي بها على غير بينة، أما من طالع جملة في شرح الحديث والتفسير، ونظر في كتب الخلاف، فإنه يقف على مدارك الأئمة، ويراهم كيف يتحرون مقصد الشريعة، ويستندون فيما يقررونه من الأحكام إلى الدلائل المنصوبة من قبل الشارع، وإذا سبق له أن هذا قد أحكم الاستدلال في قضية، فقد يظهر له أن الآخر قد أصاب المفصل في قضية أخرى.

*** النزول في أزمير:**

رست الباخرة على «أزمير»، فسألت طائفة من رفقائنا: هل سبقت لهم معرفة بدخولها؟ فذكر بعضهم أنه أتى عليها مرتين أو ثلاثاً، ولم يتفق له النزول إلى داخلها، فقلت: ننزل قضاء لحق الجغرافيا، فانحدرنا في زورق، وتجولنا بها مقدار ساعتين، ثم انقلبنا إلى الباخرة، وصاحبنا في الزورق عند معادنا أحد المدرسين بقرية قريبة من أزمير، فخاطبه رفيق تركي بلغته، وقال له مشيراً لي: هذا يتكلم بالعربية، فنطق ذلك المدرس بلسان عربي قائلاً: «أنا لا أفهمه إلا إذا خاطبني بالعربية الفصحى»، فتجاذبنا طرف الحديث، إلى أن وصلنا إلى الباخرة.

*** الوصول إلى إستنبول:**

عرجت الباخرة على جزيرة «رودس»، وأقامت تجاهها نحو ثلاث ساعات، ثم أقامت وسارت إلى أن ولجت «بوغاز الدردنيل»، فسبحت فيه ليلة ونصف يوم إلى الآستانة، وألقت مراسيها قريباً من الرصيف، فانحدرنا في زورق إلى إستانبول، فلقينا فضيلة المحقق الهمام الشيخ سيدي محمد

المكي بن عزوز في انتظارنا، وأقمنا بمحل حضرته «باشكطاش».

زرت جامع آية صوفيا، وشهدت به درسين يقرران باللسان التركي، أحدهما في التفسير، والآخر في الفقه.

ثم زرت جامع بايزيد، وشهدت به دروساً أيضاً باللسان التركي، ويقال: إن الشيخ الفناري الذي كان قاضياً بالآستانة، عاتب السلطان بايزيد على عدم حضوره الصلاة في الجامع، فأنشأ هذا الجامع؛ ليحرز فيه صلاة الجماعة.

*** الكلام على الحلول والاتحاد:**

وزرت مكتبة راغب باشا، فلقيت بها الشيخ أحمد باي أحمد علماء بغداد، أخبرني أنه طالع «الفتوحات المكية» مرات عديدة، وزاول الكتب العالية في الأصول والحكمة والبلاغة، واتفق أن لم يبسط في هذا المجلس سوى الكلام على الحلول والاتحاد الذي ينسب للصوفية، وقال: إن المعترضين لم يفهموا مرادهم، وأخذ يقرر محاضرين باللسان التركي، فالتفت نحوي أحدهم، وقال لي: ما لك لا تتكلم في هذه المسألة؟ فقررت حينئذ ما أعهده للشيخ أبي عبدالله محمد بن قاسم البكي في شرح عقيدة أبي الحاجب، وذلك أقرب ما يفهم، وأوجز ما علق بذهني في هذا المطلب، وهو أن من الناس من ينسب القول بالاتحاد والحلول إلى الصوفية، بل إلى الكل منهم، كما وقع ذلك للشيخ أبي حامد في كتبه؛ أخذاً من ظاهر كلام الأشياخ؛ كأبي يزيد البسطامي، وهذا إنما يتوهمه فيهم من ليس له اطلاع على أحوالهم، على أنه لم يرد في اصطلاح القوم شيء من إطلاق الحلول والاتحاد، إلا ما وقع في اصطلاح المتأخرين؛ كالشيخ ابن الفارض ومن معه من إطلاق لفظ الاتحاد، وأما الحلول، فلم يطلقه أحد، ومراد الشيخ ابن الفارض في الاتحاد: ما ذكره بعض المتأخرين

في الاصطلاح، وهو شهود اتحاد تعلق الموجودات كلها به ـ جلّ وعلا ـ؛ إذ هي به موجودة لا بنفسها، وهذا هو المسمّى عندهم: بالفناء في التوحيد، كما صرح به الشيخ أبو حامد الغزالي في كتاب: الصبر في «إحيائه».

ولا يبعد أن تكون طائفة قد انتمت إلى الإسلام ظاهراً، واستعارت لباس الصوفية، لما علمت من مكانتهم في معتقد الأمة، وأخذت تبث هذه المقالات الناقضة لأساس الدين، وهذا الشيخ محيي الدين بن عربي، الذي هو أبعد الصوفية مرمى في هذا المقام يقول في (صحيفة ٣٩) من أول «فتوحاته»: «تعالى الله أن تحله الحوادث، أو يحل في الحوادث».

وحدثني خالنا الأستاذ: أن راغب باشا لما أنشأ هذه المكتبة، فكر ليضع لها تأريخاً، ففطنت به امرأة عارفة، فقالت: «فيها كتب قيمة[1]»، فكانت هذه الجملة تأريخ تأسيس المكتبة، وقد رسموها في لوح معلق الآن في ناحية بابها.

* **الخطباء من الترك:**

شهدت الجمعة بالجامع الذي أنشأه السلطان عبد الحميد إزاء قصر «يلدز»، ثم جامع «آية صوفيا»، ثم جامع الشيخ ظافر.

لا يبسط الخطباء من الترك في الموعظة، وإنما يأتي الخطيب بالديباجة من حمد وصلاة ورضا عن الصحابة، ثم يلقي جملة فيها أمر بالتقوى، ويضيف إليها حديثاً أو آية. وذاكرت في هذا أحد الأساتذة، وقلت: لعلهم يراعون أن غالب الحاضرين لا يفهمون العربية، فيقتصرون على القدر الذي يتم به نصاب الخطبة؟ فقال: كان هذا من أثر العصر السالف حيث يخشى من استطالة الخطبة أن تبث فيها آراء سياسية.

---

(١) تأسست عام ١٠٦٨هـ.

*** الشيخ إسماعيل الصفايحي:**

زرت فضيلة العلامة الهمام الأستاذ الشيخ سيد إسماعيل الصفايحي[1] بمنزله القريب من السراي، فبذل لنا من المبرة والابتهاج باللقاء ما لا يسع اللسان شكره.

زرت هذا الأستاذ مرة، وجاوزت الحديقة إلى البيت الذي يلاقي فيه الزائرين، فألفيته مستقبل القبلة، وهو يقرأ «صحيح البخاري» بلهجته الطيبة، فجلست بكرسي على جانب منه، ولم أشعره بحضوري في البيت؛ ليستمر على القراءة ما شاء، ولكنه لحظني، فقرأ بعد ذلك حديثاً أو حديثين، ثم أطبق السفر، وختم بالدعاء، وأقبل عليّ بالترحاب.

زرت في صحبة فضيلته الزكي الفاضل السيد أليفي شيخ مشايخ الطرق، وتناول حضرة الأستاذ، إلى أن ألقى في تقديمي إلى الشيخ وتعريفه بحالي، عبارات صاغها خلوص ضميره، ورقة عواطفه عليّ، فقد كنت كلفاً بأساليب تعليمه، ومعظم ما أدركت في التعلم من دروسه. وبينما نحن جالسون إلى حضرة هذا الشيخ، ورد على المجلس شيخان، أحدهما عربي، والآخر تركي، فأخذ الأول يتكلم في اصطلاحات صوفية؛ كالفرق بين المظهر والتجلي، ثم قدم إلى شيخ الشيوخ إجازة ليطالعها.

*** تسمية كتاب «الشفا»:**

مما أعلمني به فضيلة خالنا الأستاذ: أن الشيخ محمود الشنقيطي انتقد على القاضي عياض - رحمه الله - تسمية كتابه بالشفا، وقال: إن الشفا ممدود، ولا يسوغ قصره إلا لضرورة الشعر، وهي مفقودة في وضع هذا الاسم، وقال

---

(١) أحد القضاة التونسيين هاجر إلى الآستانة.

الشيخ الأستاذ: كنت أجبت عن هذا؛ بأن اسم الشفا قد وقع موقع الوقف؛ حيث أتى خاتمة فاصلة، والممدود يوقف عليه بالقصر، كما هو مقرر في علم القراءة.

فذكرت في هذا المجلس: أن الإمام ابن عرفة نقل عن الشهاب القرافي اعتراضه على الإمام المازري في تسمية كتابه «المحصول»، وقال: إن المحصول اسم مفعول، وفعله قاصر، فالصواب أن يسمّى: المحصول فيه، وقال الشيخ ابن عرفة: وهذا غير لازم؛ فإنه علم، والأعلام لا تجري تحت ضابط، وقد قال تعالى: ﴿سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾[النجم: ١٤].

ولو كانت مراعاة القاعدة لازمة هنا، لقال: المنتهى إليها. فيصح أن يقتبس من هذا التقرير جواب ثان عن التسمية بالشفا، فقال الأستاذ: وهذا أيضاً جواب يحل الاعتراض.

* **عيادة مريض:**

خرجت ليلة صحبة فضيلته لزيارة أحد الأصدقاء، والسبلُ وعرة، والمطر يرشح، فكنت أقتفي أثره وأتمهل في الانحدار، فقال لي: سر على أثري، وقد قرئ قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾[طه: ٨٤] بسكون الثاء وفتحها، فقلت: يؤخذ من الآية: أن الإنسان يخبر بما يظنه واقعاً، ولا حرج عليه أن يبرز الخبر في صورة القطع؛ فإن سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ كان يظن أن قومه في أثره، وألقى الخبر، وذلك من غير أن يسنده إلى ظن، فقال الشيخ الأستاذ: هذا حسن، ورتب عليه قول الفقهاء: واعتمد البات على ظن قوي.

زار فضيلة الأستاذ منزل الزكي السيد محمد بلكباش التونسي عائداً له، فلم يوافق حضوره في البيت، فلما حدثني الأستاذ بذلك، أنشدت البيت:

وأعجبُ شيء سمعنا به   مريضٌ يُعاد فلا يوجدُ

فقال ـ حفظه الله ـ: قد ذكرت هذا البيت، وأضفت إليه بيتاً آخر، وأنا نازل في درج السيد المعاد، وهو:

ولكن يدل على برئه . . .

ثم كرر هذا الصدر ليتذكر العجز، فقلت: وذلك غاية ما يقصد

فقال: بل قلت:

فمن أجل ذا ربنا نحمد

وهكذا كانت مجالسه فائضة بالفوائد والآداب.

كنت ماراً رفيق ذلك الأستاذ على الجسر الذي يصل إستانبول «غلطة»، فلقينا السيد وجيه من أبناء الشيخ الجيلي ﷺ، وأحد الكتاب بباب المشيخة، ومما ذكر الأستاذ في التعريف بشأنه: أنه ينظم الشعر باللغات العربية والتركية والفارسية.

*** حديث المهدي:**

ركبت في بعض الأيام الباخرة التي تتردد ما بين باشكطاش وإستنبول، وكان جلوسي بجنب رجل من الأهالي، فبعد أن خطب معرفتي، بسط في الثناء على فضيلة الأستاذ الشيخ سيدي إسماعيل، وحدثني بأنه كان يتضلع في دروسه في الحديث، وهذا الرجل هو السيد حسن فوزي أحد الكتاب بالباب العالي، وقد سألني في هذا المجلس عن خبر المهدي، فذكرت في جوابه خلاصة ما في رسالة السيوطي المسماة «العرف الوردي»، وما قاله ابن خلدون من الخدش في تلك الأحاديث، وذكر حديث: «لا مهدي إلا عيسى»، فذكرت له ما أعهده لابن السبكي في «الطبقات»؛ فإنه قال في ترجمة يونس بن عبد الأعلى

ابن حيان: وتكلم جماعة في هذا الحديث، والصحيح فيه: أن محمد بن خالد الجندي تفرد به، وذكر أبو عبدالله الحاكم أن الجندي رجل مجهول.

*** الشيخ عبد العزيز جاويش:**

لقيت العالم الشيخ عبد العزيز جاويش بعد إيابه من مصر، وثبوت براءته مما ألصقوه به من التهمة بحادثة الأوراق، فأنشدته عندما ظهر عليه الأسف من حال السجن على وجه التسلية وترويح الخاطر: قول ابن الجهم:

قالوا: حُبست، فقلت: ليس بضائري ... حبسي وأي مهند لا يغمدُ

والحبسُ ما لم تغشَهُ لدنِيَّةٍ ... شنعاء نِعْمَ المنزل المتورّدُ

وقد نظم له الشاعر الرصافي قصيدة في هذا الغرض يقول في طالعها:

إني عهدتك لا تكون بؤوساً ... مهما لقيت مصائباً ونحوسا

كم قد صدمتَ النائبات بهمة ... جعلت لها الصبر الجميل لبوسا

إلى أن يقول:

جارت سياستهم عليك فأغضبت ... أهل العدالة سائساً ومسوسا

ولو انّ أخلاق الرجال صحيحةٌ ... ما كان حقك عندهم مبخوسا

إن يظلموك فإن حبك لم يزل ... في قلب كل موحِّد مغروسا

والشمس تشهد أن فضلك مثلها ... تحيي النفوس وتقتل الحنديسا

ولئن لقيت أذى فكم من مصلح ... لقي الأذاة مفجعاً متعوسا

ضحكت وجوه الترهات ولم يزل ... وجه الحقيقة في الأنام عبوسا

وجدته حين لقيته يفسر قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً ﴾[الإسراء: ١٦] الآية... على معنى: جعلنا مترفيها أمراء، ففسقوا باتباع الهوى، واحتياز

المنافع لأشخاصهم، بدون احترام للحقوق، ولا مبالاة بسوء العاقبة، فقلت له: ومن وجوه تفسير الآية: أنها واردة على معنى: أمرناهم بالعدل، وما فيه تقوى، ففسقوا بالجور واتباع الشهوات، فقال: نعم، قيل هذا، ولكني أفضل الوجه الأول في التفسير، والوجه الذي ذكرناه صدر به الرازي، ونسبه إلى الأكثر.

*** فضيلة الاتحاد:**

جذبني إلى الكلام في فضيلة الاتحاد، فقلت: إن الاختلاف طبيعة بشرية لا تخلو عنه هيئة مجتمعة؛ فإن أسبابه من الأعراض اللازمة للهيئات الاجتماعية، وترجع هذه الأسباب إلى أمرين:

أحدهما: تفاوت في إدراك الحقائق؛ فقد تبصر هذه الطائفة الصلاح في عمل، فتقبل عليه بسعي حثيث، ويقصر عنه نظر طائفة أخرى، فتغمض عنه أجفانها، وتأخذ بيد غيرها إلى الإدبار عنه.

ثانيهما: تفريق الأهواء؛ فقد تستوي أنظار الطائفتين في العلم بالمصلحة، ولكن تبتلى إحداهما بهوى غالب، يطيش بها إلى لذة خاصة، ويقطعها عن الأخذ بالمصالح المشتركة.

وإذا كانت أسباب الخلاف في الآراء والمساعي طبيعة بشرية، فالساعي إلى الاتحاد لا يقصد بدعوته أن ترضى الأمة عن كل رأي ينشر، أو تلتئم مع كل جمعية تؤلف؛ بحيث ترخي ذيل التغاضي عما يعرض في الآراء من الخطأ، أو توسع قبولها لكل ما يصدر عن الجمعيات من الأعمال، وإنما يريد فيما ينصح: أن تتحرى الأمة العمل على شاكلة الوفاق، وإذا فتّتهم طبيعة اختلاف العقول، أو تغلب الأهواء في شعبة، وقفوا عند حد لا يشرف بهم على خاتمة سيئة.

*** زيارة مكتبات إستنبول:**

زرت مكتبة عاشر، ومما ألفيته في كتبها النادرة: تفسير لمجد الدين صاحب «القاموس»، وطالعت منه نبذة، فإذا هو من أحسن التفاسير، ولكنه لا يكتب في كل آية.

وزرت مكتبة قرب بني جامع، فألفيت بها تآليف نادرة، منها: «شرح ابن جني على ديوان الحماسة»، و«إرشاف الضرب» لأبي حيان، وشروح: ناصر الدين الترمذي، وسلطان شاه، وحسام الدين الموذني، وعماد الدين الكاشي على كتاب «المفتاح».

وزرت مكتبة بايزيد، ومما طالعته في كتبها النادرة: كتاب «الصناعة» لابن جني، وكتاب «القول السديد في التقليد»، وذكر في خاتمته: أن للإمام ابن عرفة المتأخر كتاباً أسماه: «إيثار الحق عن الخلق». وهذا كتاب لا نعرفه للشيخ ابن عرفة قبل هذا. ومنها: شرح للشيخ علي قاري على كتاب «عين العلم» الذي انتخب فيه مؤلفه «الإحياء» للإمام الغزالي، وهذا المنتخب قيل: لبعض الفضلاء من الهند، على ما قاله العلامة ابن حجر في شرح مقدمته، وقيل: إنه منسوب إلى بعض العلماء ببلخ.

ولقيت في هذه المكتبة الشيخ شرف الدين أحد المدرسين الأذكياء، وأول خطاب توجه به إليّ: أنه رأى في يدي بعض شروح الشفا؟! للشيخ ابن سينا، أخذته لمطالعة بعض المباحث، فقال لي: تنظر كتاب الشفا؟! هذا الكتاب وأمثاله من الفلسفة القديمة التي لا فائدة في الاشتغال بها، ومطالعة الكتب الحديثة في هذا العلم أعظم فائدة وأغنى، فقلت: نطالع التآليف الحديثة، ولا ننكث أيدينا من القديم، وهنا تمادت بنا المحادثة إلى

التعارف، وأخذ الموعد على اللقاء.

*** بين القديم والحديث:**

بسط هذا الشيخ في اللائمة على أصحاب الأفكار الواقفة ممن ينتسب إلى علماء الإسلام، فقلت: لا أنكر أن يكون فيمن ينتمي إلى العلم طائفة لم تسرح أنظارها في مجال متسع، فقد تكلم بعضهم بحرمة أشياء لم يرد عن الشارع في مثلها كراهية، والقواعد التي أقرها الأئمة المجتهدون تقتضي الأخذ بمصالحها، والعمل على شاكلتها، ولكني لا أتطرق فأدخل في حزبهم المعتدلين مثلما يفعل المتطرفون، وكثيراً ما تصدر المقالات المتغالية عن عدم استكشاف الفقيه لحال ما أفتى به، ومن أمثلة هذا: أني سمعت بعض العلماء الوافدين على الحاضرة يقول: المخابرة في التلغراف غير جائزة؛ ظناً منه أنه من قبيل السحر أو التكهن، حتى أخبره أحد الحاضرين: بأنه مقام على قواعد وعلم يدرس، وأن أعماله ظاهرة يباشرها كل أحد أدرك صناعته، فرجع وقال: فهو حينئذ حسن، فهذا الفقيه لم يكن واقف الفكر، ولكن فاته الاطلاع على حقيقة تلك الآلة قبل أن يتكلم في حكمها.

وذكرت بهذا المقام ثلاثة أبيات للشيخ عبد الرحمن بن سلام العالم البيروتي، أنشدنيها حين زار منزلنا بدمشق، وقد ضلّ من ذاكرتي الآن بعض ألفاظها، ومعناها: أن الأفكار القابلة للتصرف والنماء إنما تقذف بنتائجها، وتلمع ببروق أفعالها، إذا نقر عليها الجامدون، وقدحوها بزناد ما يصنعون، كما أن نغمات الوتر لا تنتشر إلا إذا جسها العود الجامد بضرباته، والبيت الثالث منها:

فالجمع بينهما لابد منه إذاً   فالعود لولاه لم تطرب بصوت وتر

زرت مكتبة كوبرلي، ولم أتمكن من مطالعة شيء من كتبها؛ لما يباشر فيها من الإصلاح لذلك الحين، ويوجد في هذه المكتبة كتاب «المحلّى» لابن حزم، الذي قال في حقه عز الدين بن عبد السلام: لم يؤلف مثله في الإسلام.

وزرت مكتبة آية صوفيا أياماً، ولم أوافق أوقات انفتاحها، ويوجد في هذه المكتبة تسعة أجزاء من كتاب «التمهيد» لابن عبد البر، ولم أظفر به فيما عرفت من المكاتب العامة أو الخاصة.

*** الشيخ إبراهيم ظافر:**

زرت صحبةَ خالنا الأستاذ منزلَ الفاضل الشيخ السيد إبراهيم ظافر، فتلقانا هذا الشيخ وأخوه الفاضل السيد حسن ظافر بمجاملة فطرية، وآداب مهذبة.

وعند أول اجتماعنا بالسيد حسن ظافر، قال له حضرة الأستاذ[1] على وجه التواضع والتنازل: هذا ابن أختي، قرأ عليّ، ولكنه صار الآن أرقى رتبة، فقال له السيد حسن: نحن لا يمكننا أن نعتقد بأن يبلغ شأوك أحد، فضلاً أن يفوقك، وهذه العبارة تشعر بأن العائلة الظافرية تقدر مقام ذلك الأستاذ حق قدره.

*** دار الفنون ومدرسة الواعظين:**

زرت مدرسة الواعظين، وشهدت أحد الشيوخ يدرّس باللسان التركي، فأصغيت إليه، فإذا هو يقرر في مبحث: تكوين السحب والرعد والمطر، وإنما عرفت المبحث؛ لكثرة ما يتخلل اللغة التركية من ألفاظ العربية، حتى قدرها بعض من تصدى لإحصائها بنسبة سبعين في المئة، أي: المئة كلمة في اللسان

---

(١) العلامة محمد المكي بن عزوز خال الإمام.

التركي يكون نحو السبعين منها عربياً.

بعد انتهاء الدرس، نهض أحد التلامذة للسلام عليّ، وكان مرافقاً لنا من «مرسين» إلى الآستانة، وأعلمني بأن هذا المدرس هو الشيخ عبد اللطيف الخربوتي معلم علم الكلام في دار الفنون ومدرسة الواعظين، والكتاب الذي كان بصدد دراسته من مؤلفاته، ويسمى: «علم الكلام في عقائد أهل الإسلام، اطلعت من يد هذا التلميذ على نسخة منه طبعت بالآستانة، فرأيته مؤلفاً باللسانين، أعلى الصحيفة عربي، وأسفلها تركي، بينهما خط فاصل.

وكانت في يد هذا التلميذ أوراق من تأليف في الأدب للسيد معروف الرصافي، وجميعه باللسان التركي، ما عدا القصائد والأبيات، فإنها عربية، وحدثني التلميذ بأن صاحب هذا التأليف له درس في الأدب العربي بهذه المدرسة.

*** القفاز:**

زار أحد التلامذة من «بني غازي» منزل خالنا الأستاذ، فحدثني الشيخ: أن هذا التلميذ كان رافقه من بني غازي إلى الآستانة، فرأى عنده ما يلبس في اليد لوقاية البرد، قال: فسألته عن اسمه باللسان التركي، ثم عن اسمه باللسان الفرنساوي، فأجابني بهما، وسألته: عن اسمه عند العرب، فأجاب: بعدم المعرفة، فقلت له: إن جهلك باسم الشيء في لغة قومك مع علمك باسمه في لغة أخرى، مما يلصق بك نقيصة، ويجر إليك ملامة، ثم أعلمته بأن اسمه في العربية: «قُفَّاز».

*** عطلة يوم الثلاثاء:**

اتخذ أهل الآستانة يوم الثلاثاء يوم استراحة من التعليم زيادة على يوم

الجمعة، ويذكرون في سبب هذا: أن الشيخ الفنري كان يترك الدراسة به؛ ليشتغل التلامذة بالنسخ، فبقيت البطالة فيه إلى اليوم عادة مستمرة.

*** فاتحة الرسائل:**

ومن عوائدهم في المراسلات، بل عادة الشرق فيما رأيت: أن يصدروها بكلمة: «الحمد لله» فقط، ومنهم من لا يكتب في طالع المكتوب شيئاً.

كنت اطلعت في رحلتي إلى الجزائر سنة ١٣٢٢هـ على قصيدة تسمى: «نفيسة الجمان في فتح ثغر وهران»، وهذه القصيدة وشرحها للشيخ محمد بن أحمد بن عبد القادر أبو راس، ومما ذكر في هذا الشرح: أن النبي ﷺ كان يكتب في أول الرسائل البسملة فقط، واستمر الأمر على ذلك إلى أن ولّي السفاح أول ملوك بني العباس، فزاد الصلاة على النبي ﷺ، واستمر الأمر على هذا إلى أن بويع يوسف بن عبد المؤمن، فجعل مكان البسملة: الحمد لله، وعليه العمل اليوم.

*** سياسة الدول:**

وممن يزورنا ونزوره: الفاضل الأديب السيد أحمد باي بن الأمير فضل، وقد أهداني رسالة حافلة ألفها في فضل الاتحاد، وأطلعني على بعض منظومات له جيدة، ولهذا الذكي ولع بالبحث في الشؤون العامة، والاستطلاع على دقائق الأدب.

طاف بي في المقعد الذي أعده للزائرين على معلقات يشتمل بعضها على قصائد من إنشائه، حتى انتهينا إلى معلقة فيها مثال راية سوداء، فأنشدته:

أعلامه السود إعلام بسؤدده ... كأنهن بخد الملك خيلانُ

جذبني إلى الكلام في حال الدول بوجه عام، فقلت: من شأن الدولة

الراسخة الدعائم: أن تكون لها أصول مقررة، وصبغة معروفة؛ بحيث يكاد الممارس لسياستها يحكم في أعمالها المستقبلة، ويتخرص للقضايا التي ستجريها في الحـوادث، وإن لم يكن في أمثالها قوانين مفصلة، سـواء بقي الأمر بيد هيئة واحدة، أو استحال إلى غيرها، فإن الهيئة الحاكمة في الدول القائمة، إذا تجددت، إنما تخالف ما قبلها في سن بعض القوانين، أو إدخال بعض إصلاحات تدريجية، ولا تقلب سياسة الهيئة السالفة من أسلفها إلى أعلاها، إلا إذا لم يكن للدولة في أصلها نظام كلي، وسياسة متأصلة، أو كانت أفراد تلك الهيئة الحادثة غير قائمة بتعاليم السياسة المقررة للدولة؛ بحيث تكون أساليبها مصبوبة في مداركهم؛ كالملكات تصدر عنها الأعمال المطابقة بسهولة.

*** وعكة صحية:**

دعانا الفاضلان السـيد الحبيب بن الشيخ، والسيد المختار بن الشيخ التونسيان لزيارة منزلهما، وانتظم المجلس بفضيلة خالنا الأستاذ، والسيد حسن ظافر، وعندنا أخذنا نقتطف أزهار الحديث، أدركني خفقان في القلب، وضعف بالغ لا أعرفه فيما سلف، وكان الوجع يطالبني بالتأوه، فأحافظ على السكينة حتى سقطتُ على الوسادة، ومن مساعدة القدر: أن حضر الطبيب العارف السيد رجب بقصد السمر، فجس النبض، واستجلب الدواء، فاستفقت من الغاشية، ولا أنسى أني لقيت من هذه العائلة إشفاقاً خالصاً، ومبرة عاطفة حتى مطلع الشمس.

*** القمر ليلة أربعة عشر:**

جئت يوماً رفيقاً لخالنا الأستاذ إلى الباخرة التي تسير من إستانبول إلى «باشكطاش»، فالتقيت بالفاضل السيد محمد بن الشيخ يوسف الأسير، وكان

أبوه من علماء بيروت، وهو ناظم «مجمع الأمثـال» للميداني، فقرأنا من محادثته شهامة وكرم أخلاق. سأله حضرة الأستاذ عند موقف الوداع عن العدد المرسوم على باب منزله، عسى أن تدعو إليه الزيارة، فقال: عدد ١٤ أربعة عشر، فلاحظ له الشيخ أن هذا العدد يشير إلى كمال صاحب المنزل؛ لأنه عدد الليلة التي استوفى فيها البدر ضياءه كاملاً، وذكر له قول المفسرين في قوله تعالى: ﴿طه﴾[طه: ١]: أن الطاء تسعة، والهاء خمسة، والمجموع أربعة عشر، فكأن المعنى: بأن وجهه كالقمر ليلة أربعة عشر.

وممن يزورنا ونزوره: الفاضلان الشريفان: الشيخ السيد إبراهيم، والشيخ السيد أبو السعود ابنا السيد أسعد المدني، فشهدنا في بساط محاضرتها أدباً عالياً، وأنساً خالصاً.

وزرت صحبة فضيلة الأستاذ الشيخ سيدي إسماعيل الصفائحي منزل الفاضل الشيخ يونس، وكان هذا الشيخ قاضياً بالعسكر، فأهداني رسالة ألفها في أسرار بعض العبادات، وسماها: «درر الحكم»، وفي أثناء المجلس دخل ابنه، وهو ضابط في الجيش، وودعه قاصداً الخروج إلى موقع الحرب.

التقيت في مكتبة بايزيد بالرحالة خليل الخالدي، فحدثني: أنه زار تونس سنة ١٣١١هـ، ودعاه أحد الطلبة إلى منزله القريب من باب سيدي عبدالله، واطلع عنده على كتاب «المدارك»، قال: وقد ذكرت اسمه في رحلتي. فذكَّرته أني ذلك التلميذ الذي كان قد دعاه، وأراه كتاب «المدارك»، فاستأنف التحية والترحاب.

*** الخضر ـ عليه السلام ـ:**

عزمت على مبارحة الآستانة إلى الحاضرة، فتوجهت لوداع الأستاذ

الشيخ سيدي إسماعيل، صحبةَ خالنا الشيخ، ومما جرى في المجلس ذكر الخضر ـ عليه السلام ـ، فنقل حضرة الشيخ سيدي محمد المكي بن عزوز عن الإمام النووي: أن أكثر العلماء والمحدثين يقولون: إنه حي، فقلت: لعل مستندهم في هذا الطريق غيبي؛ لأني أعهد للحافظ السيوطي فيما نقل: أنه سئل البخاري عن الخضر: هل هو حي؟، فقال: كيف يكون ذلك، وقد قال النبي ﷺ: «أرأيتم ليلتكم هذه» إلخ الحديث، فقال: بل من طريق النقل، وروى أثراً عن سيدنا عمر بن عبد العزيز في ذلك.

وجرّت المناسبة خالنا الأستاذ إلى أن قال: يعجبني من إنصاف الشيخ ابن حجر: أنه يقول في شرح كثير من الأحاديث الصريحة في الحكم بخلاف مذهبه، وهذا ومن هنا انفتحت المحاضرة في الاجتهاد والتقليد، ولفضيلة الأستاذ الشيخ سيدي محمد المكي بن عزوز تآليف في مواضيع متعددة أطلعني على بعضها، ومن أنفسها: «رسالة في العمل بالحديث»، وأنه حجة في تقرير الأحكام.

* **مغادرة الآستانة:**

بارحت الآستانة يوم السبت ٦ ذي الحجة، وامتطيت باخرة فرنسوية إلى بلد «مرسيليا»، وصاحبنا في السفر الشيخ السيد عز الدين أحد علماء طرابلس، وكان قد استولى القضاء في بعض نواحيها، وله كلف بالشعر الرقيق، واقتبس في محفوظاته قسطاً وافراً منه، وأنشدني جملة من أشعار تونسية أخذها عن الشيخ محمد الحشائشي التونسي ـ رحمه الله ـ.

ولما لقيت الرجل على جانب من الأدب، كنت أغتنم الفرصة لمطارحته بإنشاد الشعر أو إنشائه، وكان يحافظ على ما نطارحه، بل ويقيده في ورقة.

ولما أشرفنا على بلد «أزمير»، وواجهتنا بمنظرها الهلالي، أنشأت له:

لأزميـر شـكل كـالهلال مقـوَّسٌ ولكن له في منتهى البحـر ألـوان

وأحسبه الشكل الذي اختطف النُّهـى لقوم فقالوا: في الكواكب سُكَّان

* **منار أزمير:**

أقامت الباخرة بأزمير ليلة وصبيحتها، وكنت برزت قريباً من العشاء على سطح الباخرة، وذلك الشيخ يؤانسني، فانكشف لنا منار على الرصيف يتضح ضياؤه مرة، ويتوارى مرة أخرى، فأنشأت:

كـأن منـاراً يهتـدى بـضيائه ومنظره المحمـرّ يبـدو ويختفـي

حَشًا تقذف الأشواق فيه بجـذوةٍ وآونـة يرجـو الوصـال فتنطفـي

قام هذا الشيخ مرة يصلي، فوقف بعض النوتية يعبث بتقليده، فأكمل صلاته بمنتهى اعتدال وطمأنينة، وبعد أن خرج من حرم العبادة، التفت إليّ وقال وهو مستريح الخاطر: لا يعبأ بهذا الصنيع، يشير إلى أنه من لعب الصبيان.

إذا لم يكن مـر الـسنين مترجمـاً على الفضل في الإنسان سميته طفـلا

* **منار نابولي:**

بلغنا إلى «نابولي» مساء يوم الجمعة، وحين أرسل الليل سجافه، رأيت بها مناراً يتجلى مشرقاً في دائرة متسعة، ثم يتضاءل إلى أن يصير في صغر الكواكب، فأنشأت فيه:

تخـال سـراجاً كالغزالـة ينجلـي ويلمع في لون السها حين يقلص

أقـيم مثـالاً فـي العيـان لقـولهم على وصف إيماني يزيد وينقص

*** جولة في مرسيليا:**

أقلعت الباخرة إلى «مرسيليا»، فوصلتها صباح يوم الأحد، فتبوأنا بها منزلاً، ثم تجولنا بمناهجها الفسيحة ما بين مبانيها الشاهقة، وامتطينا عربة كهربائية سارت بنا في بعض أطراف المدينة ودواخلها مقدار ساعة، وشهدنا في هذه المدينة حركة منتشرة، وعملاً متواصلاً.

*** العودة إلى تونس:**

ركبنا الباخرة قرطاج، وعندما أتينا على سمت بلد المرسى، وانكشف من مبانيها وبساتينها ما عظم بتشوقي إلى طلعة صاحبي الشيخ سيدي محمد الطاهر بن عاشور، وتضاعف عندي تذكار عهده الوثيق، أنشأت مناجياً لفضيلته:

قلبي يحييك إذ هبت سفينتنا تجاه مطلعك المحروس يا علمُ

تحية أبرق الشوق الشديد بها في سلك ودّ بأقصى الروح ينتظمُ

انسحبت الباخرة إلى حلق الوادي، وبعد مجاوزتها إلى الرصيف، وأخذِها في التأهب لإلقاء مراسيها، أنشأت بيتين خاتماً بهما المطاف، وهما:

أرى سفري شعراً ولكن بيوته مفصلة في غير بحر وفي بحر

ومقطع عودي من بدائعه ألا ترى عجزاً قد رد فيه على صدري

❑ ❑ ❑



حديث عن رحلتي إلى دمشق[1]

سافرت من القاهرة في الساعة الخامسة والنصف من مساء يوم الأحد ٢٥ ربيع الآخر سنة ١٣٥٦هـ، الموافق ٤ يوليو سنة ١٩٣٧م. ووصلت إلى حيفا في الساعة التاسعة والنصف من صباح يوم الاثنين، وامتطيت سيارة إلى دمشق، فدخلتها في أوائل الساعة الثالثة بعد الظهر، واستقبلنا شقيقنا الأستاذ السيد زين العابدين، والأستاذ الشيخ بهجة البيطار في جماعة من أهل العلم والفضل قرب الصالحية، وسرنا إلى منزل شقيقنا بحي الميدان، وما نفضنا غبار السفر، حتى أخذ أهل العلم والأدب وكرام القوم يتفضلون بالتحية والمؤانسة، وأخص بالذكر منهم: الأستاذ الشيخ محمد كامل القصاب، والأمير سعيد حفيد الأمير عبد القادر الجزائري، والأساتذة الشيخ محمد العطار، والشيخ محمود ياسين، والشيخ حسن الميداني، والشيخ عبد الوهاب الطنطاوي، والشيخ عبد القادر الطنطاوي، والشيخ محمد الكافي، والشيخ محمد هاشم الخطيب، والشيخ عبد الرحمن الخطيب، والشيخ الشريف الخطيب، والشيخ جميل الشطي مفتي الحنابلة، والشيخ الحلواني شيخ القراء، والشيخ أبو الخير الميداني، والشيخ ياسين الفرا، والشيخ حسن الشطي، والشيخ محمد أحمد دهمان، والشيخ علي ظبيان، والشيخ عبد الجليل الدرة،

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزآن الخامس والسادس من المجلد العاشر.

والشيخ محمد سعيد النعساني مفتي حماة، والسيد الشريف النص، والسيد عارف الدوجي، والسيد توفيق البزرة، والسيد عبد الحكيم الطرابلسي، والسيد أحمد قشلان، والشيخ حامد التقي، والشيخ قاسم القاسمي، والشيخ صلاح الزعيم، والأساتذة: خليل مردم بك، ورشيد بك بقدونس، وعمر بك فرحات، والدكتور سعيد الأسيوطي، والدكتور عزت شموط، والأستاذ عبد القادر بن المبارك، والأستاذ عبد القادر المغربي، والأستاذ بدر الدين الصفدي، والأستاذ سليمْ الجندي.

ومن أفاضل علماء العراق الأستاذ الشيخ طه الراوي وكيل المعارف ببغداد، والأستاذ الشيخ بهجة الأثري مفتش الأوقاف بها.

وقد تلقينا إيناس هؤلاء السادة، وما تفضلوا به من الزيارات، كما تلقينا إقبالَ فضلاء حي الميدان واحتفاءهم البالغ بالشكر الصادر من صميم الفؤاد.

وأقام طائفة من أهل العلم والأدب ورجال النهضة السورية مآدب وحفلات شاي لقدومنا، وحضر هذه المجامع كثير من كرام القوم وعلمائهم وأدبائهم. وأخص بالذكر من هؤلاء الذين قابلونا بهذا الاحتفاء: معالي وزير المعارف والعدلية الدكتور عبد الرحمن بك الكيالي، وسعادة الأمير سعيد حفيد الأمير عبد القادر الجزائري، وحضرة المهندس الكبير الدكتور عبد الوهاب المالكي، وحضرة الأستاذ الكبير جودت الهاشمي أستاذ الرياضيات في تجهيز دمشق، وحضرات أصحاب الفضيلة الأساتذة: الشيخ كامل القصاب، والشيخ محمود ياسين، والشيخ بهجت البيطار، والشيخ حسن الميداني، والأستاذ عز الدين التنوخي، وحضرة الوجيه السيد محمد بك العابد، ونجليه الأدبيين:

السيد راتب، والسيد رياض، والأستاذ السيد المكي ابن العلامة السيد محمد ابن جعفر الكتاني، وحضرات أعضاء جمعية التمدن الإسلامي، والأساتذة: جميل أفندي مراد، وعبد الحميد أفندي مراد، وعبد الحميد أفندي حبش، وصبحي أفندي البوشي، وحسن أفندي التريكي، والسيد عبد الرزاق الملقي.

ودعانا إلى «الهامة» إحدى مصايف دمشق، فضيلة الأستاذ الشيخ محمود ياسين، والسيد محمد كامل القصاب، ودعانا إلى «دمر» سعادة الأمير سعيد الجزائري، ودعانا إلى منتزهاتها السيد صادق المحمودي مدير مدرسة المأمون، ودعانا إلى «المزة» السيد عدنان رابح.

وممن اجتمعنا به في المأدبة التي أقامها الأستاذ القصاب حضرة مدير أوقاف دمشق أبي النصر اليافي بك. وفي المأدبة التي أقامها الأستاذ البيطار، حضر مدير الأوقاف العامة حسن بك الحكيم، وتوفيق بك حيدر.

وممن اجتمعنا به في حفلة الشاي التي أقامها الدكتور المالكي: حضرة الزعيم نصوح بك البخاري، والنائب المحترم أبي الهدى بك الحسيبي، والنائب المحترم منيربك العجلاني.

وممن اجتمعنا به في حفلة الشاي التي أقامها الأستاذ الهاشمي: الدكتور جميل صليبا مفتش المدارس الثانوية، والأستاذ السيد توفيق الجابري مدير التعليم الابتدائي في دمشق، والدكتور صبحي أبو غنيمة، والأستاذ السيد كامل الهبراوي مفتش المعارف.

وممن اجتمعنا به في المأدبة التي أقامها الأمير سعيد بدمر: حضرة صاحب السماحة السيد محيي الدين ابن أخي المجاهد الكبير عبد القادر، وهو من سماحة الأخلاق وطيب المذاكرة بمكانة سامية.

*** بعض ما كتبته الصحف عن هذه المجامع:**

كتبت صحف دمشق عن بعض هذه المجامع، وننقل هنا ما كتبته جريدة «الإنشاء» في وصف حفلة الدكتور المالكي إذ قالت:

«كانت الحفلة التي أقامها المهندس الكبير الصديق السيد عبد الوهاب المالكي على شرف العلامة الشيخ محمد الخضر التونسي حفلةً أنيقة، جمعت نخبة ممتازة من النواب، ورجال العلم والأدب، وتلاميذ الأستاذ الخضر، وقد دعي الحاضرون إلى مائدة شائقة، ثم ألقى الدكتور المالكي كلمة جميلة، سننشرها غداً، عدّد فيها مآثر الأستاذ المحتفى به، وفضله على كثير من رجالات دمشق وشبابها، فقد أمضى في دمشق أعواماً طويلة، ودرّس علوم الدين والعربية في المدرسة السلطانية، ثم سافر إلى مصر، فعرف القوم فضله، وقام بتدريس العلوم الدينية في الأزهر، وانتخب عضواً في المجمع اللغوي الملكي، ثم ألقى الأستاذ عز الدين التنوخي قصيدة نظمها الأستاذ الخضر في مدح دمشق والحنين إليها، فاستحسنت جداً، وتكلم الأستاذ بهجت البيطار عضو المجمع العلمي العربي فقال: إنه أراد أن يفاضل بين علم المحتفى به وأخلاقه، فما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ لأن علمه وخلقه كلاهما عظيم، وبدرجة واحدة. وتمنى أن تؤسس الجامعة السورية كرسياً لعلوم الدين، وتعهد به إلى الأستاذ الخضر، ثم تكلم الأستاذ سعدي ياسين، فعرض لعناية العرب قديماً بالعلم، ورفعهم أقدار العلماء، والمبالغة في تكريمهم، وكانت الكلمة الأخيرة للأستاذ الخضر، فشكر لصاحب الدعوة لطفه، ثم تكلم عن حياته التي قضى شطراً منها في تونس، وشطراً منها في دمشق، وشطراً في مصر، وها هو يعود إلى دمشق التي أحبها كثيراً؛ لأنه وجد

فيها هناءة العيش، وبعد أن أمضى المحتفلون ساعة في أحاديث أدبية تاريخية جميلة، ودعوا صاحب الدعوة شاكرين له كرمه وأريحيته».

*** الكلمة التي ألقيتها في منزل الدكتور المالكي:**

سادتي الأجلاء! أشكر لحضراتكم وحضرة صاحب الدعوة الدكتور الكبير عبد الوهاب المالكي بك على هذا الاحتفاء البالغ صادراً من صميم الفوائد، وقد أثنى حضرة الدكتور وحضرات إخوانه الخطباء عليّ ثناء لا أستحقه، وعلى أي حال كنت، لا يسعني إلا أن أقابله بشكر جزيل؛ لأنه صادر عن عاطفة أدبية نبيلة، وإذا دلّ هذا الثناء على شيء، فإنما يدل على أن المودة الخالصة تجعل السها في نظر صاحبها قمراً، بل تريه الذرة درّة، وتخيل إليه فيما لا طعم له ولا رائحة: أنه لذيذ الطعم، ذكي الرائحة، وإذا ارتحت لهذا الاحتفال، فلأنه مظهر عاطفة مودة كانت قد ربطت بيني وبين حضرة صاحب الدعوة، وبعض حضرات المحتفلين منذ عهد بعيد، وإن هذا الاحتفاء قد دلّ على تلك المودة بعبارات جديدة، لا أنها بليت فجددها؛ لأن المودة القائمة على الفضيلة لا يمسها بِلًى حتى تحتاج إلى تجديد.

قلت هذا، وما زلت أذكر أيام كان الدكتور المالكي تلميذاً بالمدرسة السلطانية، وكنت أرى منه الجد في طلب العلم، والشجاعة الأدبية المكسوة بالحياء والأدب الرفيع، وكنت أشعر منه بإجلال ممزوج بصدق الود، حتى إذا مرّ على خاطري ذكريات أيام الدراسة بالمدرسة السلطانية وأنا بمصر، وجدت صورة ذلك التلميذ (عبد الوهاب المالكي) في أول ما يخطر في نفسي.

سادتي! كنت نشأت نشأتي العلمية في تونس، ووجدت أمامي طائفة

غير قليلة من أهل العلم الصحيح والبصائر النيرة، وكان هناك غافلون عن بعض ما يقتضيه الحال من إصلاح، فقمت بجانب من الدعوة إلى ما أراه خيراً للأمة الإسلامية، ولا أكتمكم أني كنت أشعر بمناوأة من جانب أولئك الغافلين.

وانتقلت إلى دمشق، وعهد إليّ بالتدريس في بعض مدارسها، وأقبلت على التدريس في بعض مساجدها، وكتبت مقالات كثيرة في صحفها، وأقمت على هذه السيرة نحواً من سبع سنين، وكانت الصلة بيني وبين علمائها وأدبائها وفضلائها صافية محكمة.

ثم رحلت إلى القاهرة، فلقيت من كبار علمائها، وصفوة أدبائها، ورجال نهضتها، ورؤساء دولتها احتفاء وتكرمة، غير أن مدينة كمدينة القاهرة لا تخلو من نفر ينتمون إلى العلم أو الأدب لا يبالون أن يجحدوا، ويدعون إلى هذا الجحود، فكنت فيمن ينبه لهذه الحقائق، ويشير إلى أن تلك الدعوة غير رابحة، ولا أكتمكم أيضاً أني لاقيت قسطاً من مناوأة أولئك الجاحدين.

هذه الأوطان الثلاثة التي قضيت بها عمراً غير قصير، وإذا كان فضل العلماء المحققين، والأدباء المستقيمين، والرؤساء الراشدين، قد غطى في تونس ومصر على ما أشرت إليه من مناوأة بعض الغافلين أو الجاحدين حتى أنسانيها، ولم تبلغ أن يكون لها في حياتي الأدبية أثر، فإن الأعوام التي قضيتها بين أهل دمشق لم أشعر فيها على ما أذكر إلا برقة العطف، وحسن اللقاء أينما كنت، فإذا حننت إلى دمشق، فإنما أحن إلى الخلق الكريم، والأدب الأخّاذ بالألباب، وقد شهد لها بهذه المزايا كثير من نزلائها العلماء والأدباء من قبلي، والسلام عليكم ورحمة الله.

*** المحاضرة بالمجمع:**

اقترح عليّ بعض أهل العلم من أعضاء المجمع العلمي إلقاء محاضرة في بهو المحاضرات بالمجمع، فأجبت الطلب، واخترت أن يكون موضوع المحاضرة: «أثر الرحلة في الحياة العلمية والأدبية»[1]، وقد نشرت في مجلة «المجمع العلمي»، ثم في الجزء الثاني من المجلد العاشر من «الهداية»، وحضرها جمع كبير من العلماء والأدباء والفضلاء، نخص بالذكر منهم: معالي وزير المعارف الدكتور عبد الرحمن بك الكيالي، وحضرة مدير العدلية العام الأستاذ النكدي بك، والأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي.

*** إلقاء درس بالجامع الأموي:**

اقترح عليّ بعض طلاب العلوم الدينية إلقاء درس بالجامع الأموي، فأجبت طلبهم، وكان موضوع الدرس: تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[الإسراء: ٩ ـ ١٠]. وسننشر ملخص هذا الدرس فيما بعد ـ إن شاء الله ـ.

*** إلقاء درس حديث بجامع باب مصلى:**

اقترح عليّ بعض أهل الفضل إلقاء درس وعظ للجمهور، واختاروا أن يكون في جامع باب المصلّى، فأجبت طلبهم، وكان موضوع الدرس: حديث مالك في «الموطأ»: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»، وكنت أرى بعض أهل العلم في المجلس يكتب ما أقوله في شرح هذا الحديث.

---

(١) وهي المحاضرة المنشورة في مطلع هذا الكتاب.

بعد انتهاء الدرس، ألقى الأستاذ الشيخ بهجة البيطار خطبة، دعا فيها أهل العلم إلى الاتحاد والتعاون على نشر العلم والإرشاد.

*** الحالة الدينية بدمشق:**

في دمشق علماء أجلاء في الدين والعربية، يدرّسون في مساجد متفرقة، وفي بعض مدارس الحكومة، والمدارس الأهلية، ولو كان للحكومات السابقة عناية بالعلوم الدينية والعربية، لأنشأت في دمشق معهداً كبيراً يشبه الأزهر، أو جامع الزيتونة، ينفع الناس، ويأتي بثمار أكثر مما يأتي به التدريس المفرق في المساجد، والجاري على غير نظام.

ولو عزمت حكومة دمشق على إنشاء معهد ديني عربي كبير، لوجدت في علماء دمشق الكفاية، ووجدت في أوقافها متى نظمت القدرة على الإنفاق عليها بسخاء.

وقد سرني أني وجدت من مدير الأوقاف العام حسن بك الحكيم، ومدير أوقاف دمشق أبي نصر اليافي بك، عزماً على تنظيم شؤون التعليم الديني، والنهوض إلى مكانة تليق بسمعة دمشق في القديم والحديث، وكلا المديرين فيما فهمته من محاورات دارت بيننا وبينهما في هذا الشأن، يعلم يقيناً أن الشعوب الإسلامية لا ترقى الرقي الذي تملك به حريتها وسيادتها إلا أن يكون للعلوم الإسلامية فيها المكانة الأولى.

ويعزز ما ينويه مدير الأوقاف من النهوض بالعلوم الإسلامية: أن العلماء أيام كنت هناك، قد يعقدون اجتماعات للنظر في وجوه ترقية التعليم الديني، وفي تأليف جمعية تعمل لإعلاء شأن الدين، والذود عن كرامة أهل العلم.

أما التعليم الديني في مدارس الحكومة، فإن الجمعيات الإسلامية مثل

«جمعية الهداية الإسلامية»، و«جمعية التمدن الإسلامي»، ما زالت تجاهد في هذا السبيل، والذي وقع أيام كنت هناك: أن وزير المعارف الدكتور عبد الرحمن بك الكيالي ألف لجنة من بعض مدرسي المعارف، وأعضاء الجمعيات الإسلامية، مثل: الأستاذ الشيخ محمود ياسين، والأستاذ الشيخ بهجة البيطار، والأستاذ الشيخ عبد القادر بن المبارك، لوضع منهج للتعليم الديني في مدارس الحكومة، ونرجو أن تكون اللجنة قد توفقت في وضع هذا المنهج، وأن وزارة المعارف قد تلقته بما يدل على إخلاصها في تأليف اللجنة، فتقوم على تنفيذه، وتجعل علوم الدين من العلوم التي ينبني عليها نجاح الطالب ورسوبه في الامتحان.

وأذكر أن فضيلة الأستاذ الشيخ طاهر الكيالي، من أفاضل علماء حلب، وهو من أجلّ من لقيت في الشام استقامة على الدين، قد كتب مذكرة لمعالي وزير المعارف الذي هو من آل الكيالي، يذكّر فيها بما للدين من فضل في رقي النشء وسعادة الأمة، ويطلب منه العناية بالتعليم الديني في المدارس، وجعله علماً أساسياً في الامتحان، يرتبط به نجاح الطالب وسقوطه.

*** الجمعيات الإسلامية في دمشق:**

أنشئت منذ سنين «جمعية الهداية الإسلامية»، وحضرات قراء المجلة يعرفون كثيراً من أعمال هذه الجمعية مما ننشره لها في هذه المجلة من بيانات تذيعها إرشاداً للأمة، أو استنكاراً أو احتجاجاً على بعض ما يصدر من حكومة دمشق من تصرفات تخالف الدين، والحق أن هذه الجمعية تعدّ في مقدمة الجمعيات التي تصدع بالحق في شجاعة، ومن حضرات أعضائها: الأستاذ الشيخ محمود ياسين، والأستاذ السيد الشريف النص، والأستاذ السيد عارف الدوجي.

وأنشئت منذ سنين أيضاً «جمعية التمدن الإسلامي»، وحضرات أعضاء جمعيتنا يطلعون على مجلتها «التمدن الإسلامي»، ويقرؤون ما ينشر في هذه المجلة من المباحث الدينية والاجتماعية والتاريخية المفيدة، ومن حضرات أعضائها القائمين بشؤونها: الأستاذ حسن الشطي، والأستاذ الشيخ محمد أحمد دهمان نزيل مصر اليوم، والأستاذ الشيخ بهجة البيطار، والأستاذ الشيخ علي ظبيان، والأستاذ أحمد العظمة، ولهذه الجمعية أيضاً فضل كبير في تقويم سياسة الحكومة متى انحرفت عن سبيل الحق.

وأنشئت منذ سنين «الجمعية الغراء»، وفضل هذه الجمعية في مدارس أنشأتها لتعليم الدين والعربية، وقد وقع بينها وبين إدارة الأوقاف في العهد الأخير اتفاق على منهج للتعليم، يأتي - إن شاء الله - بفوائد كبيرة، وقد رأينا من مدير الأوقاف العام حسن بك الحكيم، ومدير أوقاف دمشق أبي نصر اليافي بك عناية بإصلاح شؤون الأوقاف، وعزماً على النهوض بالتعليم الديني على وجه صحيح، فنرجو لهم من الله التوفيق.

ومما أعجبت به في دمشق: جماعة من طلاب العلم يتلقون العلم عن فضيلة الأستاذ الشيخ حسن الميداني بمدرسة جامع منجك، ويهتدون بهديه، والأستاذ عالم مستنير الفكر، مستقيم على الآداب السامية، فصيح اللسان، وكثيراً ما دارت بيننا وبينه مذكرات في مسائل دينية وعربية، فنلقى منه ما ينبغي أن يتحلّى به أهل العلم من جودة النظر، وحسن الأناة، والتواضع والإنصاف.

وتم تأليف «جمعية العلماء» التي تركتها عندما غادرت دمشق بصدد التأليف، ورئيس هذه الجمعية حضرة صاحب الفضيلة الزعيم المخلص الأستاذ الشيخ محمد كامل القصاب، وأخذت هذه الجمعية تعمل للغرض الذي أنشئت

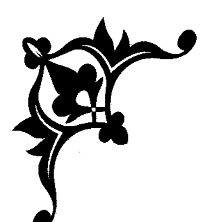
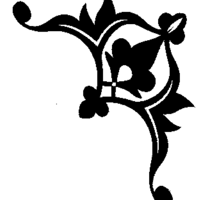
من أجله، وهو الذود عن حمى الشريعة، والعمل للمحافظة على كرامة العلم، ورفعة مكانة أهله، وسننشر لها في الجزء التالي رداً على مديرية الأوقاف بدمشق.

والخلاصة: أن في دمشق جمعيات إسلامية يقوم بها رجال يجمعون إلى الغيرة شجاعة أدبية، ونرجو أن تقدر حكومة دمشق قدرهم، وتفتح صدرها لما يقدمونه لها من نصائح، وتتلقى هذه النصائح بالقبول والتشجيع؛ فإن هذه الجمعيات هي التي تعبر عن آراء الأمة تعبيراً صادقاً، وإنما تنجح الحكومات وتقوم على قاعدة العدل، متى أقامت لآراء الأمة وزناً، ولم تقصر نظرها على ما تملك من قوة.

وأضيف إلى هذا: أن في دمشق قاضياً عادلاً غيوراً على دينه، هو الشيخ عبد المحسن الأسطواني، ووجود مثل هذا القاضي الفاضل في مقدمة رجال الدين، مما يزيدهم قوة على تأدية الأمانة التي وضعها الله في أعناقهم؛ من حراسة الشريعة، والذبّ عن حماها بألسنة لا تعرف الملق، وقلوب لا تستهويها زهرة الحياة الدنيا.

وممن لقيتهم على جانب عظيم من الاهتمام بالحالة الدينية في الشرق، وتتبع ما يظهر في مصر وغيرها من الآراء الدينية: حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ جميل الشطي مفتي الحنابلة، ولهذا المفتي الفاضل مواقف محمودة تشهد بأنه قائم على تاريخ علماء الإسلام الذين لا يرون الوظيفة إلا وسيلة لخدمة الشريعة، ولا ينبغي أن تكون كمامة على فم العالم تمنعه من أن يصدع بالحق، أو تفعل به ما تفعل أم الخبائث، فتهبط به إلى أن يقول غير الحق.



رحلتي إلى سورية ولبنان(١)

سافرت من القاهرة يوم السبت ١١ جمادى الآخرة، ووصلت إلى دمشق في الساعة السادسة بعد ظهر يوم الأحد، وكانت إقامتي بمنزل شقيقنا السيد زين العابدين حسين، المقيم بحي الميدان، وقد عُرف أهل هذا الحي الكبير بالمحافظة على الأخلاق الإسلامية، كما عرف بالحزم والأمانة في التجارة، وهم بعد قيامهم بأهم جانب من التجارة في دمشق نجد لهم فروعاً في أكثر البلاد السورية، وفي فلسطين، وشرق الأردن، ولو وجد في كل قطر من الأقطار الإسلامية جد ونشاط في التجارة والصناعة كهذا الجد والنشاط، لما انحازت الثروة في الشرق إلى طائفة اليهود وغيرهم من الأجانب، ولكانت حال المسلمين الاقتصادية لا تقل عن حال غيرهم من الطوائف. وتقدم الحالة الاقتصادية من أهم وسائل رقي الأمة وسعادتها.

أقبل من الغد فضلاء المدينة وعلماؤها وأدباؤها، يتفضلون بالزيارة والمؤانسة، وعقدت بعد هذا اجتماعات في منازل خاصة، أدعى إليها، ويشهدها كثير من كبار العلماء والفضلاء، والذين يعتنون بالبحث عن شؤون العالم الإسلامي، وطرق إصلاح حالتها الاجتماعية.

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزآن الخامس والسابع من المجلد السابع عشر الصادر في ذي القعدة سنة ١٣٦٣هـ.

وقابلت فخامة رئيس الجمهورية شكري بك القوتلي، وكانت بيني وبينه صداقة من قبل أن أستوطن مصر، ولقيت منه احتفاء دلّ على أحسن رعايته للعهد، وحمدت له ما اتجهت إليه همته من العمل لأن يكون في دمشق معهد ديني يشتمل على مراحل التعليم من الابتدائي والتجهيزي والعالي والتخصص. أوفد فخامته أحد الموظفين بالقصر لإبلاغي تحيته.

وفي دمشق كلية شرعية، وقد أتم القسم التجهيزي مرحلته في هذه السنة، وعُقد لطلبته امتحان لأخذ الشهادة النهائية، وجاءتني دعوة من شيخ الكلية الأستاذ الجليل الشيخ حسن الشطي للاشتراك في امتحانهم، فحضرت يوم امتحانهم في علوم القرآن، وكان من أعضاء هذه اللجنة: الأساتذة الأجلّة: المفتي الشيخ محمد الأسطواني، والقاضي الشيخ عزيز الخاني، ونقيب الأشراف السيد سعيد حمزة، وأستاذ التفسير الشيخ بهجت البيطار، ودخل في أثناء الامتحان مدير الأوقاف العمومية جميل بك الدهان، وساطع بك الحصري المعهود إليه بالنظر في نظم التعليم بالمعارف، ومدير أوقاف العاصمة الأستاذ أحمد القاسمي، وجرى امتحان الطلاب، وكانت نتيجة الامتحان مبشّرة بنجاح التعليم في هذه الكلية، ومشجعة للذين يقدرون التعليم الديني قدره من رجال الحكومة على رعايتها، والعمل لتوسيع دائرتها.

وقابلت وزير المعارف نصوح بك البخاري، فأحسن معاليه اللقاء، ودار الحديث في وظيفة العلماء من الدعوة إلى الحق بحكمة وحسن أسلوب، ودار الحديث عن حال مصر ونهضتها العلمية والأدبية، فقلت: إن في مصر خيراً كثيراً، وفيها بجانب هذا الخير الكثير ما يجب الحذر منه؛ أعني: نزعة الإلحاد التي تظهر في مقالات أو خطب تصدر من نفر لا يقيمون للعفاف وزناً، وضاقت

عقولهم عن أن تفهم أن الإصلاح الديني أساس كل سعادة، وقلت له عندما عزمت على الانصراف: «إنما نريد نهضة علمية مربوطة بآداب الإسلام».

سافرت في ٦ يوليو إلى بيروت لتمثيل مجمع فؤاد الأول في المؤتمر الطبي، وحضرت حفلة الافتتاح، ومما لاحظته في الحفلة: أن الصف الثالث من الكراسي الأمامية مكتوب على أول كرسي منه أنه معد لرجال الدين، وجلس بهذا الصف نحو ستة من رجال الدين المسيحي، ولم نر فيه أحداً من رجال الدين الإسلامي، مثل: المفتي، أو القاضي، أو رئيس محكمة الاستئناف الشرعية، ولم أحضر بقية حفلات المؤتمر لأعذار قاهرة.

زرت الكلية الشرعية أو الفاروقية التي كان لحضرة صاحب الجلالة ملك مصر فاروق الأول الفضل في إسعادها والنهوض بها، ولقيت هناك المتولي إدارة شؤونها من قبل وزارة المعارف المصرية الأستاذ عبد العزيز أحمد، فأطلعنا على منهج تعليمها، ونتيجة امتحانها، واجتمعنا في دمشق وبيروت ببعض المتخرجين فيها، فوثقنا بأنها مؤسسة محمودة الأثر، ولاسيما في تلك البلاد التي هي في حاجة إلى حركة إسلامية حكمية.

دخلت مسجداً لأداء صلاة الجمعة، وكان خطيبه الأستاذ البارع الشيخ سعدي ياسين، فارتجل خطبة راعى فيها ما تقتضيه الحالة الحاضرة من إرشاد، ونبه في الخطبة على حضوري بالمسجد، فأخذ الناس بعد الخطبة يتبينون بأنظارهم الشخص الذي نبه له الخطيب، وأقبل كثير منهم للتحية.

وأقام هذا الأستاذ الخطيب بمنزله مأدبة شهدها بعض أهل العلم والفضل، كما أقام الأستاذ السيد صادق الجبالي مأدبة شهدها طائفة من العلماء والفضلاء، مثل: الشيخ محمد الأنسي رئيس محكمة الاستئناف الشرعية.

وعزمت «جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية» هنالك على إقامة حفلة احتفاء، ووزعوا أوراق الدعوة، وكان في ضمن برنامج الحفلة: «كلمة يقولها المحتفى به»، فأجبت الدعوة، واخترت أن تكون كلمتي في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[الأنفال: ٢٤].

وأرسلوا في الموعد أحد مندوبي الجمعية، فحضرنا هنالك، ووجدنا في الانتظار فضيلة رئيس الجمعية الأستاذ الشيخ أحمد العجوز، مع طائفة كبيرة من أعضاء الجمعية وغيرهم من المدعوين، فألقى أمين سر الجمعية كلمة تعرض فيها لجانب كبير من أعمال الجمعية، وخطب الأستاذ رئيس الجمعية، وخطب الأستاذ الشيخ سعدي ياسين، ثم جلست على منبر الخطابة، وشكرت الجمعية على احتفائها، وحضرات الخطباء على حسن ظنهم الذي أراهم الذرّة مني ذُرى، ثم ألقيت الدرس منبهاً فيه على فضل الإسلام في إصلاح الشؤون الاجتماعية، ومنبهاً للشبان على شُبه يوردها ملاحدتنا بقصد التضليل؛ ليحذروها.

وجلسنا بعد انتهاء الحفلة حيناً مع رئيس الجمعية، فرأيناه داعياً إلى الحق على بصيرة، وهو من المتخرجين في الأزهر الشريف.

وزرنا ضريح الإمام عبد الرحمن الأوزاعي المتوفى سنة ١٥٧هـ، وهو في بناء قائم على شاطئ البحر.

ثم عدت إلى دمشق، وأقامت لنا «جمعية الشبان المسلمين» حفلة احتفاء شهدها جمع كبير من أهل العلم والفضل، ومن بينهم: سماحة الأستاذ الأكبر مفتي دمشق الشيخ محمد الأسطواني، وخطب فيها حضرات الأجلاء: رئيس الجمعية الأستاذ محمد بن المبارك، والأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا المدرس

بكلية الحقوق، والقاضي الأستاذ علي الطنطاوي، وألقيت بعد هؤلاء كلمة شكر لحضراتهم على ما غمروني به من ثناء لست أهلاً له، وأتبعت كلمة الشكر بكلمات في «الجمعيات الإصلاحية»[1] التي نشرت في الجزء الثالث والرابع من المجلد السابع عشر من هذه المجلة.

وسرني من هذه الحفلة أنها كانت وليدة عاطفة أدبية إسلامية خالصة، وأن خطباءها كانوا من شباب الأساتذة الذين أضافوا إلى ثقافتهم العصرية ثقافة إسلامية صحيحة، وطالما سمعتهم ينقدون مؤلفات بعض المنحرفين عن السبيل في مصر وغيرها، ويذكرون ما فيها من أمراض عقلية أو خلقية، فأحمد الله على أن الصفوة من شبابنا لا ينخدعون بما في تلك المؤلفات من زخرف القول، كما انخدع بها كثير ممن يقرؤون، وقد وضعوا أفكارهم بين يدي المؤلف يقلبها كيف يشاء.

وطلب مني أعضاء هذه الجمعية إلقاء محاضرة خلقية، فألقيتها بعد أسبوع، وهي المحاضرة التي نشر قسم منها في الجزء السادس من المجلد السابع عشر من هذه المجلة تحت عنوان: «السمو الخلقي في الإسلام»[2]، وخطب قبل إلقائها الأستاذ الفاضل خيري الجلاد، حامل شهادة كلية الشريعة، وخطب بعد إلقائها الأستاذ مصطفى السباعي المعروف في مصر بغيرته الدينية، وشجاعته الأدبية، وهو الآن يرأس في حمص جمعية تدافع عن الإسلام ونظمه الاجتماعية.

ولجمعية التمدن الإسلامي نهضة حازمة، وكانت هذه الجمعية قد نظمت

---

(١) انظر كتاب: «هدى ونور» للإمام.

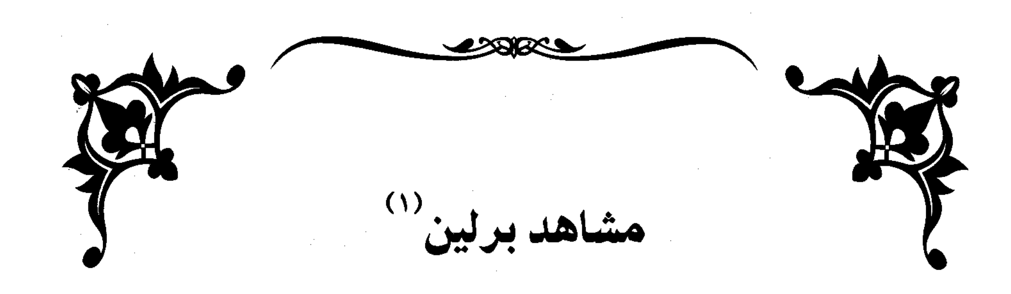
(٢) انظر كتاب: «محاضرات إسلامية» للإمام.

محاضرات إسلامية تلقى بعد العصر في كل أيام رمضان بجامع علي باشا، وطلب مني زعماء هذه الجمعية إلقاء درس هنالك، فألقيت درساً في تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[المؤمنون: ١ ـ ٢] إلى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[المؤمنون: ١٠ ـ ١١].

وصليت الجمعة في جامع الدقاق بالميدان، فاقترح عليّ فضيلة الأستاذ الجليل خطيب الجامع الشيخ بهجت البيطار إلقاء درس بالجامع، وأعلن عنه عقب خطبة الجمعة، وكان موضوع الدرس: حديث مسلم: «من نفّس عن مؤمن كربة في الدنيا، نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة» إلخ الحديث. وبعد انتهاء الدرس، وانصرافنا من المسجد، قال لي بعض الأساتذة: ألا تسمح بزيارة الأستاذ الشيخ الأشمر زعيم الحركة المقاومة لتبرج النساء وخروجهن عن فضيلة الحشمة؟ فمررنا بدار الأستاذ، وجلسنا معه نحو نصف ساعة.

وحضرت بدروس الوعظ التي تلقى بالجامع الأموي في رمضان، دروس الأساتذة الأجلّة: الشيخ هاشم الخطيب، والشيخ حسن حبنكة، والشيخ محمود ياسين، والشيخ بهجت البيطار، وأعجبت بحسن إلقاء هذه الدروس، واختيار موضوعها، ونقد شؤون كان في استطاعة الحكومة إصلاحها.

❐ ❐ ❐



مشاهد برلين[1]

* مقدمة:

وجود الإمام محمد الخضر حسين في «برلين» مجاهداً كريماً في سبيل الله، وإعلاء كلمة الحق، مرحلة من المراحل الهامة في حياته ـ رضوان الله عليه ـ.

وما أروع وأعظم مراحل حياته على اختلاف زمانها ومكانها، سواء في تونس مولده، أو في دمشق، أو في إستنبول، أو القاهرة نهاية مطافه!

كلها مدن إسلامية في عالم إسلامي واحد، شاهدة ذاكرة لنشاطه الديني والسياسي، الذي طبع صفحات تاريخه بطابع الإخلاص في العمل، والصدق في النية، إلى جانب علم غزير نافع يزين جهاده، ومكارم أخلاق ترافق خطاه، وطيب ثناء يترك آثاره من خلفه في كل سبيل سلكه على مدى عمره الطويل العامر.

والرجل القوي في دينه، العظيم في نفسه، تسلس أمامه شدائد الصعاب، وتلين بين يديه قساوة الأيام، ويلقي الله في صدور أعدائه الضعف والهلع، ويجد المؤمن الصادق في بذل الجهد الشاق متعة وراحة، لا يجدها المترفون

(١) نشرت في رسالة مستقلة ووجدنا ضمها إلى كتاب «الرحلات» إتماماً للفائدة ووحدة الموضوع.

الكسالى في أحضان الدعة والمال والسكون، أو الرجال الذين يسيرون إلى جوانب الجدران بعيداً عن الخوض في غمار الحياة خوف التعب.

يقول الإمام محمد الخضر حسين من ديوانه «خواطر الحياة»:

ولولا ارتياحي للنضال عن الهدى لفتشت عن وادٍ أعيشُ به وحدي

وكثيراً ما كان يتمثل بهذا البيت ـ رضوان الله عليه ـ.

والمسلم الذي يرتاح للنضال لا يخشى سهامه، ولا يبالي بما يصيبه من الأذى، ويجد في الحل والترحال من أجل الدعوة حلاوة لا يجدها إلا المسلم الصادق الذي يستعذب مرارة الصبر والجلَد للوصول إلى رضاء الله تعالى.

ولست أرى في الإمام محمد الخضر حسين إلا ذاك الرجل العالم العامل، والمجاهد الصامد الصابر، صغرت الدنيا في عينيه، فمرّ بها مرور الكريم سريعاً، وكأنها في نظره غزوة من غزوات الإسلام، دخلها شاهراً في يمناه كتاب الله العظيم، وخرج منها ظافراً بسلام آمن. وهنيئاً له بالدرجة العالية الرفيعة مع الصديقين والشهداء والأبرار، وحسن أولئك رفيقاً.

رحل إلى ألمانيا مرتين[1] للاتصال مع الأسرى من أبناء المغرب، وأقام

(١) يقول الإمام في حديثه إلى صحفي ألماني زاره في مشيخة الأزهر عن رحلته إلى ألمانيا: «كانت هذه الرحلة في أيام الحرب الكبرى، وكنت مع الأسرى الأفريقيين أتردد عليهم وأعود إلى برلين، وقد زرت ألمانيا مرتين: أولاهما استغرقت تسعة أشهر، والثانية سبعة أشهر». مجلة «الأزهر» ـ الجزء الرابع من المجلد الخامس والعشرين، من مقال: «طغيان الاستعمار وخطر الشيوعية، ما نأخذ من نظم الغرب وما ندع»، ونشرت المقال في كتاب «أحاديث في رحاب الأزهر» للإمام.

فيها تسعة أشهر في عام ١٩١٧م، ثم أقام فيها مدة سبعة أشهر عام ١٩١٨م. ومن رفاقه هناك: الشيخ صالح الشريف، وإسماعيل الصفايحي، وعبد العزيز جاويش، والدكتور عبد الحميد سعيد، واللواء يوسف مصطفى، وغيرهم.

كانت رحلته لأداء مهمة وطنية جليلة، فقد جندت فرنسا مئات الآلاف من المغاربة: تونسيين، وجزائريين، ومراكشيين، وألقت بهم في الخنادق الأولى من المعارك التي خاضتها ضد ألمانيا. وكان الإمام يقوم بالاتصال اليومي مع الأسرى، ويحرضهم على الثورة ضد الفرنسيين، ويدعوهم إلى الإنضمام إلى الدولة التركية التي سوف تساعدهم على تحرير بلادهم من الاستعمار.

مهمة صعبة قاسية أداها الإمام في جو الحرب المرعب، تحت القذف الدائم، والدوي المتواصل لأصوات القذائف، والتنقل عبر خطوط القتال ليصل إلى أقرب نقاط التماس مع القوات الفرنسية، وتطلق محاضراته وكلماته بواسطة المدافع إلى خنادق الفرنسيين؛ ليقرأ المغاربة الدعوة إلى عدم مؤازرة مستعمر بلادهم في هذه الحرب، بل عليهم القتال في أوطانهم ضده.

وأقام مع إخوانه المجاهدين في برلين (اللجنة التونسية الجزائرية) التي تهدف إلى تحرير بلاد المغرب، والدفاع عن قضاياها. وله مقالات ومحاضرات في الصحف والمنتديات، ولا سيما تلك التي تلقى يومياً على جموع الأسرى المغاربة في المعتقلات.

وأصدرت سلطات الاحتلال في تونس حكماً عليه بالإعدام غيابياً؛ لتحريضه المغاربة المعبئين في الجيش الفرنسي على التمرد والعصيان، ودعوتهم إلى الثورة على فرنسا، كما أصدرت السلطات الفرنسية أمراً مؤرخاً في

١٥ جوان ١٩١٧م بحجز أمواله في تونس، وبيعها[1].

تعلم اللغة الألمانية وأجادها في مدة قصيرة، واطلع على الآداب والفنون، ودرس الحالة الاجتماعية وعادات الشعوب وتقاليدها وأخلاقها هناك، وشارك في الدراسات الإسـلامية، وتباحث فيها مع علمائهم. ودرس علوم الطبيعة والكيمياء على البروفسور الألماني (هاردر) أحد العلماء الألمان المستشرقين.

يقول الإمام في مشـاهداته عند حديثه عن ترجمة القرآن للمستشـرق الألماني (ركرت): «وقد تتبعته في كثير من السـور بالمقدار الذي وقفـت عليه من هذه اللغة، مع الاستعانة بالكتب اللغوية الألمانية العربية». ويقول في مشاهداته أيضاً: «أما في صناعة الخطابة، فإني كنت شهدت محاضرات وخطباً...».

وسعى مع الدولة الألمانية لإنشاء مسجد تقام فيه فرائض الصلاة والعبادة للأسـرى المسـلمين، وافتتح في غرة شهر رمضان ١٣٣٣هـ، وألقى الإمام خطاباً في حفل الافتتاح نورده في نهاية هذا الكتاب.

*** من ذكرياته وأقواله في ألمانيا:**

إن مهمته الوطنية في ألمانيا لم تكن مانعة له من البحث العلمي والكتابة، ونجده ينظم الشعر البديع، ويسجل خواطره، ويدون مشاهداته. وكثيراً ما نراه يستشهد من خلال مقالاته التي سطرها فيما بعد بوقائع وأحداث له في ألمانيا. ومن المفيد أن نورد الفقرات التي تتعلق بإقامته في ألمانيا، وشعره الذي قاله

---

(١) «الرائد التونسي» ـ النسخة الفرنسية ـ الصادر في ٢٠/٦/ ١٩١٧م، والذي تضمن: «حجزت بقصد بيعها أملاك الأخضر بن الحسين المدرس السابق في الجامع الأعظم الذي ثبت عصيانه».

هناك من خلال مقالاته التي بين أيدينا، وديوانه «خواطر الحياة».

يقول الإمام:

ـ «ولما كنت بألمانيا، سمعت أناساً من أوربا وأمريكا يدَّعون أنهم يستحضرون أرواح الموتى، ويخبرونهم عن حالهم، وبعض ما يقع لهم في الحياة، فأقول: إن هذه الواقعة باطلة بنفسها»[١].

ـ «واجتمعت بقسيس في بلد «لنداو» من ألمانيا، وسألته: هل حضر جلسة من جلسات هؤلاء الذين يدعون استحضار الأرواح؟ قال القسيس: هذه دعوى باطلة، والعلماء ينكرون ذلك»[١].

ـ «وأذكر أني حين كنت في ألمانيا أيام الحرب الأولى حضرت حديثاً يدور بين مدير الاستخبارات الألمانية وسكرتيره أثناء سفرنا إلى قرية «ويزندرف»، سألني المدير في نهايته فقال: أليس كذلك يقرر ابن خلدون؟ قلت: وماذا يقرر؟ قال: إن العرب لا يصلحون لملك، ولا يحسنون حكماً للأمم. قلت: إنما خص ذلك بعهد الجاهلية، وقرر أنهم في الإسلام أحسنوا السياسة، وقاموا بأعباء الملك خير قيام. . .»[٢].

ـ «وأذكر بهذه المناسبة: أني لقيت مستشرقاً ألمانياً أثناء مقامي في ألمانيا دخل الإسلام؛ لمعاشرته عالماً مسلماً، وصَلَه بالثقافة الإسلامية، ووقفه على شيء من أسرار كتاب الله وسنة رسوله، فانشرح صدره للإسلام

---

(١) مجلة «لواء الإسلام» ـ العدد التاسع من السنة الثامنة. الصادر بالقاهرة في جمادى الأولى ١٣٧٤هـ ـ يناير ١٩٥٥م. من مقال: «استحضار الأرواح».

(٢) مجلة «لواء الإسلام» ـ العدد الثامن من السنة التاسعة الصادر بالقاهرة في ربيع الثاني ١٣٧٥هـ ـ نوفمبر ١٩٥٥م من مقال: «العرب والسياسة».

لما آنس من رشده وحكمته، وقد وصف صديقه العالم فقال: ما رأيت عالماً مثله قط»[1].

- «وتقترب الأمة من الحرية بقدر ما تقل فيها المظالم، وقد قضيت في ألمانيا سنة وأربعة أشهر لم أر أحداً يرفع صوته على آخر بالشتم، أو يرفع يده لأذيته، فأقول: هذا من خلق القرآن الكريم...»[2].

- «وأخبرت وأنا في ألمانيا: أن هناك جمعية خيرية ترسل في البريد إلى المحتاجين من غير أن يعلموا من أين جاءتهم. وهذا المعنى وجد في جزيرة العرب قبل ما يزيد على ألف سنة، فقد جاء في تاريخ أحد أهل الخير: أنه كان يرصد المعونة إلى المحتاجين من غير أن يعرفوه، ولما مات، وانقطعت عنهم المعونة، عرفوا أنه هو الذي كان يرسل إليهم المعونة»[3].

- «وأذكر أني حين كنت في ألمانيا لم آكل من لحوم حيوانهم؛ لأني عرفت أنهم لا يذبحون الحيوان بالطريق الشرعي، إنما يقتلونه بالضرب على رأسه، أو بالخنق، وأخذت في ذلك بقوله تعالى عند تعداد المحرم من الحيوان: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾[المائدة: ٣]، وهو منطبق على ما يفعلون»[4].

---

(١) مجلة «لواء الإسلام» ـ العدد الحادي عشر من السنة التاسعة ـ الصادر بالقاهرة في رجب ١٣٧٥هـ ـ فبراير ١٩٥٦م. من مقال: «ما يلاقيه العلماء من سماحة الأمراء».

(٢) مجلة «لواء الإسلام» ـ العدد السادس من السنة العاشرة الصادر بالقاهرة في صفر ١٣٧٦هـ ـ سبتمبر ١٩٥٦م. من مقال: «مكافحة المظالم موجبة للسلام».

(٣) مجلة «لواء الإسلام» ـ العدد الثامن من السنة العاشرة الصادر بالقاهرة في ربيع الثاني ١٣٧٦هـ ـ نوفمبر ١٩٥٦م ـ من مقال: «الرفق بالضعفاء».

(٤) مجلة «لواء الإسلام» ـ العدد الحادي عشر من السنة العاشرة، الصادر بالقاهرة في رجب ١٣٧٦هـ ـ فبراير ١٩٥٧م من مقال: «المال المباح في الإسلام».

ـ «وكنت في برلين آخذ دروساً في الطبيعة والكيمياء عن المستشرق الدكتور (هردل)، فأخبرني الدكتور بأن أحد الألمان قرأ القرآن، وأسلم، وقال الدكتور: إن الإسلام حقيقة تكلم في التوحيد بما لم يتكلم به دين آخر»[1].

*** شعره في ألمانيا:**

ومن روائع شعره تحت عنوان: «العرب والسياسة»:

يقول الإمام محمد الخضر حسين: «كنت في قطار بضواحي برلين يرافقني مدير الأمور الشرقية بوزارة الخارجية، وكان يتحدث مع شاب ألماني باللغة الألمانية، ثم أقبل عليّ وقال لي: أليس هكذا يقول ابن خلدون: إن العرب أبعد الناس عن السياسة؟ فقلت: يريد العرب قبل دخولهم الإسلام، وبهذه المناسبة نظمت هذه الأبيات»:

عذيري من فتى أزرى بقومي ... وفي الأهواء ما يلد الهذاءَ[2]

يقول: العربُ ظلوا في جفاء ... وما عرفوا السياسةَ والدهاءَ

سلوا التاريخ عن حكم تملّت ... رعاياه العدالةَ والرخاءَ[3]

عزوفِ النفس عن ترفٍ ذكورٍ ... لعقبى من أجاد ومن أساءَ[4]

---

(١) مجلة «لواء الإسلام» ـ العدد السابع من السنة الحادية عشر. الصادر بالقاهرة في ربيع الأول ١٣٧٧ هـ ـ أكتوبر ١٩٥٧م من مقال: «الدعوة القائمة على حق».

(٢) العذير: العاذل. أزرى به: وضع منه، أو قصّر به. الهذاء: القول الباطل.

(٣) تملى: استمتع، يقال: تمليت عمري؛ أي: استمتعت به.

(٤) عزوف: يقال: عزفت النفس عن الشيء: زهدت فيه، وانصرفت عنه، أو ملته، فهي عزوف عنه. العقبى: جزاء الأمر، الآخرة.

همــامٍ كــان ســامرُه وأقــصى بــلاد فــي مهابتــه ســـواءَ[1]

هــو الفــاروق لــم يــدرك مــداه أميــر هــزَّ فــي الــدنيا لــواءَ[2]

ـ وتحت عنوان (قوس الغمام):

أيخفى ضمير المرء يوماً ولو سما إلى الذروة القصوى ضحى ودهاءَ

إذا كتمتنا الشمس ألوانها ضـحى يبوح بها قـوس الغمـام مـساءَ[3]

ـ ويصف (حمرة الشفق):

هذا الدجى اغتـال النهـار ودسّـه تحت التراب مـضرجاً بدمائـه[4]

ما حمرةُ الشفق التي تبدو سـوى لطخ من الدم طار نحـو ردائـه[5]

ونجد في هذين البيتين أثر الحرب المشتعلة في نفس الإمام الشاعر.

وفي قرية «لنداو»، والثلج على الأشجار، وقد طلعت عليه الشمس فأخذ يذوب، وقرية «لنداو» على بحيرة «بودن» بألمانيا:

ـ (عبرات الأشجار):

نسج الغمام لهذه الأشـجار مـن غَـزْلِ الثلـوج براقعـاً وجلاببـا

---

(١) الهمام: الملك العظيم الهمة، والسيد الشجاع، وهو من أسماء الأسد. السامر: مجلس السمار، يقال: أمسيت البارحة في سامر الحي؛ أي: في مجلس مسامرتهم.

(٢) الفاروق: أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. قال رسول الله ﷺ «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه، وهو الفاروق، فرق الله به بين الحق والباطل».

(٣) قوس الغمام: وكذلك قوس السحاب، يحدث في الأفق عقب المطر، وألوانه مختلفة.

(٤) الدجى: الظلمة.

(٥) الشفق: الحمرة في الأفق من الغروب إلى العشاء الآخرة، أو إلى قريب العتمة، اللطخ: اليسير القليل من كل شيء.

والشمس تبعث في الضحى بأشعة | تسطو على تلك الثياب نواهبا
فبكت لكشف حجابها أَوَ ما ترى | عَبراتها بين الغصون سواكبا

- (ريح تنسف في روضة):

جاد هذا الروض غيثٌ فازدهى | وغدا بُلبلُه يطري السحابا
وتمادى مسهباً في مدحه | فحثت في وجهه الريح ترابا

- (زجاجات المصور):

عذرتك إذ صورت في نفسك الهدى | ضلالاً وصورت الضلال رشادا
فإن زجاجات المصور تقلب الـ | ـسواد بياضاً والبياض سوادا

- أبيات قالها في برلين سنة ١٣٣٥هـ عقب زيارة المرحوم محمد فريد وإسماعيل لبيب:

جرس يصيح كحاجب | طلق اللسان معربدِ[١]
حيناً ينوح كموجع | من لطمة المتعمّدِ
والآن رنّ كمزهرٍ | جسته أنمل معبد[٢]
زار الصديق فهزّه | من بعد ضغطة جلمد[٣]
والود يسكن في الحشا | لكن يحس من اليد

---

(١) المعربد والعربيد: مؤذي نديمه في سكره، والشرير.

(٢) أنمل: جمع أنملة، وهي رأس الأصبع. معبد: نابغة الغناء العربي في العصر الأموي، نشأ في المدينة، ورحل إلى الشام، واتصل بأمرائها (. . . ـ ١٢٦هـ).

(٣) الجلمد: الرجل الشديد الصلب.

ـ (البرد في الحديقة):

هزّ النسيم غصون الروض في سحر كما يهز بنانُ الغادة الوترا[1]

لذّ الحفيف على سمع الغمام أما تراه يحثو على أدواحه دُررا[2]

ـ (العيد في برلين):

قيلت في برلين عندما أدركه عيد الفطر هناك:

أسِوارٌ من عسجد وجُمانِ تقتنيه الحسان في الأقراط[3]

أم هلال حفته في ليلة العيـ ـد نجوم ببهجة واغتباط

هذه طلعة الهلال وما لي لم أجد في الفؤاد بعضَ انبساطي

يوم عيد وما تفتق كِمٌّ عن أنيس ولو كسَمٍّ الخياط[4]

ما تملى سمعي تهانئ صيغت في قلوب موصولةٍ بنياطي[5]

أين جيراننا وأين المصلى وخطيبٌ يهدي لخير صراطِ[6]

أين مني شفيقةُ القلب تُهدي دعواتٍ مثلَ الظباء عواطي[7]

---

(١) البنان: أطراف الأصابع، الواحدة: بنانة. الغادة: المرأة الناعمة اللينة الأعطاف.

(٢) الحفيف: صوت أغصان الشجر. يحثو التراب: هاله بيده.

(٣) العسجد: الذهب. الجمان: اللؤلؤ. الأقراط: جمع قرط: ما يعلق في شحمة الأذن من درة ونحوها.

(٤) الكِمُّ: الغلاف الذي ينشق عن الثمر، غطاء الزهر. سم الخياط: ثقب الإبرة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[الأعراف: ٤٠].

(٥) النياط: الفؤاد.

(٦) الصراط: الطريق.

(٧) شفيقة القلب: يقصد بها والدته السيدة البارة حليمة بنت مصطفى بن عزوز =

لـو تقاضـيت فـي اغترابـي أمـراً ... نهـضت همتـي لــه ونــشاطي
لأدرت العِنــان نحـــو دمـــشقٍ ... وحمدت السُّرى على الأشواط[1]

- (ثلج في السحر):

تطاول هـذا الليـل والجـو مزبِـدٌ ... تـضيق بـأمواج الثلـوج مـسالكُهْ
كأني أُذيبُ الصبح بالحدق التـي ... يقلبهـا وجـدي وتلـك سـبائكُهْ

- (الملك الطبيعي أو راعي الغنم):

قيلت في قرية «ويزندورف» بضواحي برلين:

تقلَّد الملكَ بين الـضَّال والـسَّلم ... وهبَّ يفتحُ من غَورٍ إلى عَلَـم[2]
فعرشُــه ربـوةٌ حاكـت خميلتهـا ... يد الغمامة إذ جادت بمنـسجم[3]
وتاجه الشمس تبدو فوق مفرقـه ... تاج مصونٌ بلا جند وسفك دم[4]
سراجه الكوكب الدُّرِّيُّ يرسل من ... عليائه بـسناً ينـساب فـي الظُّلـم
والظَّبي يرقُمُ في طِرْس الفلاة خُطاً ... أحلى لناظره من جولـةِ القلـم[5]
صفت منـاظر غـدرانٍ فكـان لـه ... فيها مزايا جلاهـا صـاقل النَّـسَمِ

= المتوفاة بدمشق في رمضان سنة ١٣٣٥هـ. الظباء: الواحد ظبي، وهو الغزال.

(١) السُّرى: سير عامة الليل. الأشواط: الواحد شوط: الجري مرة إلى الغاية.

(٢) الضال والسلم: من أشجار البادية. الغور: ما انحدر من الأرض، ويقابله النجد، والقعر من كل شيء. العلم: الجبل الطويل.

(٣) الخميلة: الشجر الكثير الملتف حيث كان.

(٤) المفرق: وسط الرأس وهو الذي يفرق فيه الشعر.

(٥) الظبي: الغزال للذكر والأنثى. الطرس: الصحيفة.

وآلةُ الطَّرب الحُمـلان ترتـع فـي ... خِصبٍ فيسمع منها أطيب النَّغم[١]

عَيناهُ: ذي سارَقَتْ جَفْنَ المها نظراً ... وتلك ناظرةٌ شزراً إلى الأجـم[٢]

لـم يتَّخذ سامراً يـوحي إليـه بمـا ... يهوى ويخضب بعض الحق بالكَتَم[٣]

وما امتطى مركباً كيلا يضايق في ... مـسيره نفَـسَ العجفـاء والهـرم

ومن تولَّى زمام الأمـر فـي مـلأٍ ... لم يغلُ إن ساسهم سعياً على قدم

- (أحمد الظعن):

قيلت على لسان قلم أهداه لأحد الكتاب بعد عودته من برلين سنة ١٣٣٤هـ:

أطوي المراحل من «برلين» في أمل ... لم يجن زهرته كفُّ الذي قَطَنا[٤]

وأحمد الظعنَ إن الظعن أظفرني ... بأنمل تخدمُ الإسـلامَ والوطنـا[٥]

- ومن أجمل شـعره وأبدعه قصيدتـه التي قالها عند رجوعه من برلين سنة ١٣٣٧هـ، وعنوانها: «من برلين إلى دمشق»، وقد ركب الباخرة من ميناء «هامبورغ» في ألمانيا، ورافقه في العودة عدد من المجاهدين، وقضى عشرين

---

(١) الحملان: جمع الحمل: الصغير من أولاد الضأن.

(٢) المها: جمع المهاة: البقرة الوحشية. الشزر: نظر الغضبان بمؤخر العين، أو النظر عن يمين وشمال. الأجم: جمع الأجمة: الشجر الكثير الملتف، وهي مأوى الأسد.

(٣) السامر: مجلس السمار. الكتم: نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر فيبقى لونه، ويريد الشاعر بذلك: ما يخفي وجه الحق.

(٤) المراحل: جمع مرحلة: المسافة التي يقطعها المسافر في اليوم.

(٥) الظعن: السير. الأنمل: جمع أنملة: رأس الأصبع.

يوماً في البحر حتى وصل إلى ميناء بيروت.

يصف الإمام في هذه القصيدة الرائعة ما لاقاه من مخاطر السفر على الماء، ويتحدث عن الإنكليز، وجفاء طباعهم، ويذكر عند مروره في جبل طارق أرضَ الأندلس، ويحزن عند مروره بإستنبول وقد هوت بعد الهزيمة، ويرى في طرابلس العلم الفرنسي، (وذاك علامة الوطن المهان).

يقول الإمام الشاعر في القصيدة:

سئمت، وما سئمت سوى مُقامي ... بدارٍ لا يروج بها بَياني

فأزمعتُ الرحيل، وفرط شوقي ... إلى بردى تحكَّمَ في عِناني

بكرت إلى القطار فسار توّاً ... إلى مَرسى السَّفين كأُفعوانِ[1]

نهضتُ إلى السَّفينة في رفاق ... سَلوتُ بأنسهم نُوَبَ الزَّمانِ

وقضَّينا بها عشرين يوماً ... فلم نلج البلاد ولا المواني

تقلِّبها العواصفُ كيف شاءت ... وتقذفها بأمواجٍ سمانِ

ألا بُعداً لما تذكيه ريحٌ ... على الدَّأماءِ من حربٍ عَوانِ[2]

رست بمياه لندنَ وهي قُصوى ... فلا بَشراً نُحِسُّ ولا المغاني[3]

ووافاها العريف ومُسْعِدوه ... سراعاً في زوارقَ كالهِجانِ[4]

وأبصرنا جفاء في وجوه ... مقطِّبة وأَحْداقٍ رواني

(١) مرسى السفين: ميناء هامبورغ بألمانيا.

(٢) الدأماء: البحر. حرب عوان: هي الحرب التي قوتل فيها مرة بعد أخرى.

(٣) لندن: عاصمة إنكلترا. قصوى: بعيدة. المغاني: جمع المغنى: المنزل.

(٤) العريف: القيم بأمر القوم الذي عرف بذلك. الهجان من الإبل: البيض الكرام.

فقـل للإنكليـز صـرعت خـصماً — وحزت الـسَّبق فـي يـوم الرهـانِ
فخـلِّ الـشَّرق يـنهض مـستقلاً — فمـا هـو بـاليؤوس ولا الجبـان
أربَّـــان الـــسفينة قـــف مليّـــاً — نـــؤبِّن فاتحـــاً ثبـــت الجنـــان[١]
كـأن ريـاح هـذا الـصبح مـرَّت — بـأرواح تـنعَّم فـي الجنـانِ[٢]
أرى جـــبلاً تـــسنَّمه قـــديماً — دعاةُ الحـقِّ والـسُّنن الحـسان[٣]
وساسـوا أرض أنـدلس بعـدل — كمـا صـنعوا بـأرض القيـروان
ومـا انقلبـت إلـى الإسـبان إلاَّ — علـى أيـدي المزاهـر والقيـان
عبرنـا الـدردنيل ضـحىً وجئنـا — فَروقَ وقد تهـاوت فـي هَـوانِ[٤]
لمحتُ على الوجوه بهـا كـسوفاً — وكدت أرى التَّجَهُّمَ في المبـاني
يميس بأرضـها الحلفـاء سـكرى — وإن لم يحتَـسُوا بنـتَ الـدِّنانِ[٥]
ولـم أعهـد بهـا إلاَّ حـصوناً — كـستها روعـة الـسيف اليمـاني
برحـت فَـروقَ مأسـوفاً وهـذي — ربـى إزميـرَ حالِكـةُ الـدِّجان[٦]

---

(١) الفاتح: طارق بن زياد. الجنان: القلب.

(٢) الجنان: جمع الجنة: الحديقة ذات الشجر.

(٣) تسَنَّم الشيء: علاه.

(٤) الدردنيل: مضيق الدردنيل يقع بين شبه جزيرتي البلقان وآسية الصغرى، ويصب بحر إيجة ببحر مرمرة. فروق: إستنبول.

(٥) بنت الدنان: الخمر.

(٦) أزمير: مرفأ في تركيا على بحر إيجة. الدِّجان: جمع الدّجن: إلباس الغيم الأرض واقطار السماء.

يجوسُ خلالها اليونانُ مَرحى ... مِراحَ الفُرسِ يومَ المهرجانِ[1]

فيا نكدي يسوس الخصمُ أمري ... وكنتُ أذقته حرَّ الطعانِ

قصدت إلى الشَّآمِ ولست أدري ... أيقسو أم يلين بها زماني

وللإفرنجِ في بيروتَ عينٌ ... يُسمَّى من يُساجِلُهم بجاني[2]

وصلت إلى طرابلسٍ وحيداً ... أعاني بالتنكّرِ ما أعاني[3]

يَشينُ قِبابها علمٌ غريبٌ ... وذاك علامةُ الوطن المُهانِ

هلمَّ حقيبتي لأحُطَّ رحلي ... فنفخُ زهورِ جِلَّق في تداني

فخض بي أيها الحادي رُباها ... وألق عصا التَّرحُّل غير واني[4]

حللتُ بها ولم أفقد ندامى ... على أدب وعيشاً في ليان[5]

وللأقدارِ في الدُّنيا صروفٌ ... طويتُ على الحديث بها لساني[6]

- وإليكم هذه الصورة الشعرية، وكأنها لوحة رسام شاعر:

(سرق الغمام):

سرق الغمام اليوم ظلي بعد أن ... رسمته في «لنداو» شمس ضحاها[7]

---

(١) المراح: التبختر والاختيال.

(٢) العين: الجاسوس. ساجل: بارى وفاخر وعارض.

(٣) طرابلس: مدينة ساحلية في لبنان.

(٤) الواني: الضعيف البدن.

(٥) ليان: رخاء العيش ونعيمه.

(٦) الصروف: جمع الصرف: حدثان الدهر ونوائبه.

(٧) لنداو: قرية ألمانية على بحيرة بودن قرب برلين.

ويد الرحيل تخطفت في «جلـق» جسمي وأبقت مهجتي برباهـا[1]

فأنـا خيـال والبحيـرة مقلـة لكـن تطـاول بالخيـال كراهـا

هذه لمحة سريعة نقدمها من سيرة الإمام محمد الخضر حسين، نورد بعدها «مشاهد برلين» التي هي بعض ذكرياته في ألمانيا الموجزة، وقد نشرت بمجلة «المقتبس» الدمشقية في الجزأين السابع والثامن من المجلد التاسع سنة ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٣م.

والحمد لله على ما هدى، والحمد لله على نعمة الإسلام.

علي الرضا الحسيني

* مرافق الحياة:

يتوسط الشوارع الكبيرة في «برلين» رياض تسايرها طولاً، وتفتح فيها سبلاً للراجلين خاصة، فيكون الشارع مفصلاً إلى رصيفين وجادتين، بينهما ممر يكتنفه عمارتان من نبات تطرزه الرياحين بألوان مختلفة، ولا يشاهد الإنسان في ديارها ـ ولو في الأرباض ـ بناء بالياً، أو جداراً متداعياً، والذي ساعد على تنسيق مبانيها ومتانتها: أن عناصر الطين بمقربة من تلك المدينة، وأن الحجارة والخشب يجلبان إليها على نهر «شبري» بسهولة وقيم زهيدة.

وكثير من المباني قائمة من الحجارة الرملية، ويستعملون «البرفير» زينة في داخل البيوت، وهو ضرب من حجارة الكرانيت المرادف له في العربية كلمة: صوّان، وتفرش بعض المحلات؛ مثل: دهاليز المدارس ببلاط (استك)، وهو قطع دقيقة من الرخام، تخلط بعجين الكلس.

---

(١) جلق: من أسماء دمشق.

في كل منزل حمام يتخذ من الزنك، يسخن ماؤه في قصبة تنصب بإزائه مثل الأسطوانة، ويتصل بحافته مجرى للماء الحار، وآخر للماء البارد، ومن فوقه الناضحة المثقبة، ولكل واحد من المجاري الثلاثة مفتاح يتميز بكتابة على جانبه.

ومن تلك الحمامات ما يتدفق إليه الماء الحار من معمل تشترك فيه منازل كثيرة، فيتيسر للإنسان أن يتطهر منها في أي دقيقة حضرت، ويقل لهذا ترددهم على الحمامات العامة، ولا يقصدونها ـ في الغالب ـ إلا لداعية زائدة على النظافة؛ إذ يوجد فيها من يقوم بعمل الدلك على قاعدة صحية.

ومن المنازل ما يتوسل لدفئه أيام البرد بإيقاد الفحم في القصبات القائمة بزاوية من زوايا المنزل على الطريقة المعروفة، ومنها ما يدفأ بوسيلة ماءٍ حار يمر في بعض نواحيه على أسلوب منتظم. وملخص ترتيبه: أن ينصب في الطبقة السفلى مرجل توقد تحته النار بتناسب، ويتصل بالمرجل قصبة يصعد فيها الماء إلى إناء فتح عند سقف الطبقة العليا، ثم ينسكب نازلاً إلى مواضع التسخين في سائر الطبقات وحجراتها، حتى يعود إلى المرجل مرة أخرى، ويتركب موقع التسخين ـ في الغالب ـ من خمس عشرة إلى عشرين أسطوانة خشبية متلاصقة، وحيث يجري الماء في مجال مستدير وسطح غير ضيق يحصل الدفء الكافي.

وذكرت عند هذا الصنيع: أن جبرئيل بن بختيشوع المتوفى سنة ٣٥٦هـ، كان يضع من وراء الحجرة التي يجلس فيها مواقد تبعث من وهجها ما يكسر سورة البرد. دخل عليه أحد الفضلاء ـ على ما قصّه موفق الدين في «طبقات الأطباء» ـ، فأحس بدفءٍ، وقد أصبح البرد شديداً، فكشف له بختيشوع عن

جوانب المقعد، فإذا موضع له شبابيك خشب بعد شبابيك من حديد وكوانين فيها فحم الغضى، وغلمان ينفخون ذلك الفحم بالزقاق، مثلما يصنع الحدّادون.

ويفتحون في النوادي الكبيرة مراوح ذات آلات، تجلب إليها الهواء النقي أو النسيم البارد بإدارة كهربائية. فمن محال القهوة ما يسع أكثر من ألف نسمة، فتجد الجالسين صفوفاً مرصوصة، ولا يحس الداخل بكدر في الهواء مع ما يقع من التدخين. وهذا أيضاً ذكّرني: أن بختيشوع الذي دبّر طريقة تسخين الحجرات إذا دبّت عقارِب البرد، قد فكّر في وجه استخلاص النسيم البارد إذا رمت الظهيرة بجمراتها، فكان يعد من خلف القبة التي يتبوؤها مواضع مرصف فيها قطع من الثلج، ويأخذ الغلمان مراوح يستثيرون بها من ذلك الثلج نسيماً بارداً، فيهب إلى القبة في طريقة متجددة.

وكانوا يستوقدون الشمع، وبعض أصحاب البيوت يصنعونه من شحم البقر بأيديهم إلى قريب من سنة ١٨٤٠م، فظهر بينهم زيت الغاز المعدني، اكتشفوه في أربع ولايات من ألمانيا، ولكن منابعها ليست بغزيرة، وقد تهللت اليوم بالضرورة مسارج الكهرباء والغاز البخاري في كل محلة.

أما القصور القيصرية، فكانت تنار بالشمع المستخلص من عسل النحل، ثم انبجست فيها أنوار الكهرباء سنة ١٨٨٨م.

لا تخلو أبواب البيوت ودواخل الحجرات من أجراس يستند تنظيمها بين الضغط على أزرارها، ورنةّ مطرقتها إلى مجرى كهربائي، تستمده من معمل تشترك فيه محلات متعددة. ويصنعون في كل حجرة من الفنادق الشهيرة ثلاثة أجراس، يدعو النزيل بأحدها من تكلّف بتنظيم الحجرة، وبثانيها من يعين لمناولة ما يحتاج إليه من مثل طعام أو شراب، وبثالثها من يختص بحمل الأمتعة.

ترتبط المنازل بأسلاك حاكي الصدى (التلفون) وقد ربحوا بوسيلته قسطاً عظيماً من أوقاتهم، فيكون الإنسان في غنى عن أن يبدد قطعة من الوقت، الذي هو سلك عمره في مسافة الذهاب إلى مكان، والإياب عنه بإبلاغ كلمة، والإنصات إلى مثلها، وقد أصبح من المعتاد عندهم أن الإنسان لا يضرب بخطوة إلى زيارة أحد، حتى يعلم بهذه الوسيلة أنه حاضر في منزله، ويفهم من خطابه أنه لم يكن في حال يقتضي تأخير اللقاء إلى دفعة أخرى.

وتسلم إدارته لكل من عقد في محله فرعاً منه مجلداً، يحتوي على أسماء المشتركين فيه مرتبة على أحرف الهجاء، مع بيان الأعداد التي جعلت علماً على فروعهم. فمن أراد ليخابر آخر، خاطب الموظف في مركز دائرته أولاً، وأعلمه بالعدد الذي جعل على الفرع الواقع في منزل صاحبه، فيهيىء له طريقة المخابرة معه. واختاروا أن يكون الموظفون في هذه الدوائر نساء، وقالوا في علة ذلك: إن التجربة كشفت على أن كلام المرأة في هذه الآلة أوضح من كلام الرجل، وأمكن في السمع.

ولا داعي إلى رفع الصوت عند المخابرة فيه، فإن المتكلم يلقي بكلامه في مكر تلفون: «آلة تقوية الصوت الضعيف»، بل ربما أدى الجهر بالقول فوق العادة إلى فوات بعض الأحرف، أو عدم تمكنها من سمع المخاطب.

يضعون في المطابخ موازين تسمى: ميزان المطبخ، يزنون بها ما يشترون من لوازم المطبخ ونحوه؛ لكي يتيقنوا نصح البائع أو خيانته، وعِلْم الباعة بمثل هذا مما يجعلهم على استقامة وحذر من التطفيف بالوزن.

ويتخذون الريش حشواً لألحفة الفراش التي تكون من كتان غالباً، فيجمعون في صنعهم هذا بين دفئها، وخفة وقعها، ويستعملون للطبخ بإرشاد

من نظارة الصحة العمومية القيصرية قدوراً من الألمنيوم (معدن أبيض كالفضة)؛ لأن من خواص هذا المعدن: أنه لا يفسده حامض ماء البارود، ولا يتضرر من حامض الكبريت، إلا إذا مسه مراراً متعددة، ثم إن ما يجتمع من مائه لا يسري إلى جسم الإنسان بضرر ذي بال، والقدور والأواني التي تصاحب العساكر، إنما تؤخذ من هذا المعدن؛ لخفة حمله، وقلة أذيته.

وفي الفنادق الشهيرة ـ ما عدا الساعات المنبهة المتداولة ـ آلة تلصق في الجدران المحاذية للسرر بحيث تنالها يد المضطجع، فيستعملها للإفاقة من النوم في وقت معين، فتصدح في الوقت نفسه بصوت رخيم يستمر أمداً طويلاً، أو لا ينقطع إلا إذا أسكتتها يد بتحويل وضعها.

* **الديانة:**

ينتحل معظم الشعوب الألمانية مذهب البرتستانت. وأول من أطلق لذلك الشعوب في العقائد، ولم يأخذ عليها في تقاليدها (فريدريك الكبير)، فخففت ولايته فتناً كانت التعصبات الاعتقادية تنفخ في جمراتها.

وصرّح بعض أساتيذهم بمزية القرآن في الدعوة إلى التوحيد الخالص، وفهمت عنه أن لدلائله وأساليبها، إذ أصبحت ترجمته تسعى بين أيديهم، أثراً في تأييد الاعتقاد بوحدة الإله. ومما أخذوه في شعار الديانة: أنْ رسموا في منطقة كل عسكري جملة تعريبها: (الله معنا). ويغلب على فلاسفتهم التمسك بما يدينون، ولا يمرقون إلى الإلحاد مثل كثير من فلاسفة أوربا الغربية. فأشهر فلاسفة الألمان (كنت) المتوفى في أوائل القرن التاسع عشر، قد تعرض في تأليفه المسمى: «انتقاد العقل الخالص» للاستدلال على وجود الخالق، وهذا التأليف أعظم كتاب يعتمد عليه فلاسفتهم.

* **الجد والعمل:**

يعمل الألمان في حياتهم على شاكلة سياسيهم الكبير (بسمارك) القائل: «إن استراح، صدئ». فإذا رأيتهم ـ لا سيما في غرة النهار ـ وهم ينتشرون في الأرض بخطًا سريعة. ونشاط، يتمثل لك الجد في أوسع مظهره، وينكشف لك الفرق ما بين العامل والقاعد في أجلى صوره.

وفي بعض إحصائيات ليست ببعيدة أن (٥٢) في المئة من السكان يرتزقون من الصنائع، وأن المعامل المنشأة في شمال المدينة وشرقها تحتوي على أكثر من ثلاث مئة ألف عامل.

لا يلاقي المتجول في أنحاء المدينة ـ على سعة منطقتها ـ طائفة تتسول، أو يسمع لها نغماً، وتخطر لي ذكرى أني لم ألق من السائلين في أشهر الإقامة هناك أكثر من عدد أنامل الكف الواحدة، وهم إما رجل قطع جناحه، أو عجوز بلغت من الكبر عتياً، ولا عجب إذ لم نشاهد كثيراً من العجزة يتكففون؛ فإن في الباب التاسع عشر من قوانينهم المدنية: أن تقوم الحكومة بعيش من قعد به العجز على الاكتساب بنفسه.

* **المعاهد العلمية:**

تأسست في برلين كلية يعمرها (٢٥٠) أستاذاً، و(٦٠٠٠) تلميذ، ومن شعبها: مدرسة الألسن الشرقية، المنشأة في سنة نيف ١٨٨٠، ويتعلم في هذه الشعبة نحو (٥٠٠) تلميذ.

والمدارس من غير هذه الكية لم أجد بها حساباً، وإنما عرفت منها مدرسة للصنائع بها نحو (٣٠٠٠) تلميذ، ومدرسة للزراعة بها (١٠٠٠) تلميذ، ومدرسة لطب الحيوان بها (٥٠٠) تلميذ، ومدرسة للمهندسين بها (٤٠٠٠) تلميذ.

وأنشؤوا منذ خمس سنوات داراً في «دالم» على جانب من برلين، وجلبوا إليها كل ما يفتقر إليه علماء الطبيعة من أدوات التجربة والوسائل المساعدة على البراعة الفائقة في هذا العلم، والمقدرة الواسعة في استنباط نتائجه، وقد أصبحت هذه المحلة دار إقامة لكثير من علماء الطبيعة.

وشرع (فريدريك الأول) الذي نُصِّب ملكاً على «بروسيا» في أوائل المئة الثامنة عشرة، بإنشاء دار كتب يقدر ما في خزائنها من المجلدات بمليون ونصف. ومن بينها قسم للكتب التركية، وآخر للكتب العربية. طفت بعض خزائن هذا القسم، فكنت أتناول كتاباً بعد آخر، فأجدهما مختلفين في فنيهما اختلافاً بعيداً، ثم طالعت الفهرس، فألفيته مرتباً على حروف المعجم، بحيث تسرد فيه الكتب التي تشترك بأوائل أسمائها في حروف من حروف الهجاء على نسق واحد، وإن تفرقت في موضوعات فنونها. فقرأت في حرف الهمزة مثلاً: «أحكام القرآن» لابن العربي، «إسعاف المبطي»، «الإعلام بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ»، «إنفاذ الأوامر الإلهية بنصرة العساكر العثمانية وإنقاذ الجزيرة العربية». وخصوا قسماً منها بالخرائط الجغرافية العتيقة والحديثة، وبها معرض نضدوا فيه آثار الخطوط العتيقة، وما سبق لحروفها من الأشكال الغريبة، وفتحوا في طبقتها الأولى للمطالعة محلاً سمكوا بناءه في شكل مثمن فسيح، وصففوا فيه مكاتب وكراسي في دائرة كبيرة، ومن فوق كل مكتبة مسرجة من الكهرباء، وأعدوا قبالة هذا المحل بهواً في شكل مربع مستطيل لمطالعة الجرائد والمجلات خاصة، ويماثله في طبقة عالية محل لمطالعة الكتب العربية والتركية، أو النسخ منها.

ولا يمكَّن أحدٌ من كتاب إلا إذا كانت بيده ورقة الإذن في المطالعة،

فإذا أحرز ورقة الإذن ممن له النظر في إعطائها، وأراد المطالعة أو النسخ، لم يسلم إليه الحافظ الكتاب إلا بعد أن يثبت في ورقة رسمية اسم الكتاب وعدده، ويبين هل خط بالقلم أو بالمطبعة، ثم ينهيها باسمه وصناعته ومحل سكناه.

يسمح قانونها بإعارة الكتب المطبوعة دون ما خط بالقلم؛ لأنها قد تصاب بضياع، فيصعب إيجاد مثلها وجعله بمكانه، ولا سيما ما يكون له أثر تاريخي؛ كالكتب المخطوطة بأقلام مؤلفيها، أو غيرهم من مشاهير أهل العلم.

*** نظامات علمية:**

تنقسم المدارس إلى: ابتدائية، وإعدادية، وجامعة (كلية). فيستمر التلميذ من السنة السادسة إلى الرابعة عشرة في القسم الابتدائي، ثم يتمادى في الإعدادي ست سنين، فينفصل عنها إلى الجامعة ويبقى بها ثلاث سنين، فإن كان من طلبة علم الطب، فسحوا له في الأمد إلى منتهى خمس سنين.

والتعليم الابتدائي منتشر في جميع الطبقات على طريقة جبرية، فيتحتم على الولد الاستمرار في دورته إلى أقصى غاية. وعلى وليه أن لا يمنعه بعد هذه الدورة من الاختلاف إلى المدارس الإعدادية مقدار ثلاثة أعوام، ولم تشرع الحكومة قسماً ليلياً للتلاميذ الذين هم من نفس المدينة، واختاروا أن يبقى للتلميذ اختلاف إلى أوليائه، وأنسه بهم؛ ليراقبوا حالته، ويرشحوه بشيء من آدابهم.

يتعلم البنات في مدارسهن كل فن، إلا علم الإلهيات؛ إذ لا يليق بالمرأة عندهم أن تكون واعظة. ومن أمثالهم المضروبة: «المرأة في الكنيسة تسكت».

تولّى المرأة وظيفة التعليم على شرط أن تكون أيّماً، فإن أصبحت ذات زوج، انفصلت عن خطتها.

جرى القانون أولاً على منع المعلم من مجازاة التلميذ بعقوبة الضرب، ثم ألغاه ناظر المعارف، وقال: عندي ثقة بأن لمعلمي مدارسنا حناناً على التلاميذ وعواطف، تأبى لهم أن يبلغوا بالضرب إلى ما فيه إساءة.

لا يسوغ للتلميذ أن يتعاطى المسكرات، ولو دخل في دور التعليم بالجامعة، وقد قال لي أحد أساتذتهم، عند الحديث في هذا القانون: إن تلاميذنا مثل المسلمين. كان التلاميذ يترنمون بقصائد في اللسان اللاتيني، فأبطلها القيصر، وقال: لا فائدة لهم في ذلك، فأصبحت أناشيدهم الوطنية ألمانية محضة.

يدرب التلميذ في المدارس الإعدادية على صناعة الخطابة، ويطالبونه بأن يحرر في كل شهر رسالة يبحث فيها عن بعض الموضوعات العلمية.

أجر التعليم السنوي في المدارس الإعدادية (١٥٠) ماركاً، وفي الجامعة (٥٠٠) مارك، ويوازن المارك من نقودنا على وجه التقريب القطعة الفضية ذات الخمسة قروش.

يتعين مدير الجامعة في كل سنة بانتخاب من أساتيذها، ثم تقرر ولايته بتسمية من صاحب الدولة.

ترسل الدولة في كل سنة وفداً من طلاب العلوم إلى أميركا؛ ليستطلعوا مدارسها، ويستكشفوا عما عساه أن يتجدد من أساليب العلم ونتائجه.

يتلقى أبناء العائلة القيصرية تعاليمهم في مدرسة خاصة لا يغشاها إلا من نشأ في مهد الملك من أسرة راقية، ويقال: إن والد القيصر الحالي كان يود لهم أن يتعلموا بالمدارس العامة؛ حتى يلاقوا سائر الطبقات، ويكونوا على خبرة محققة من أحوالها.

*** مشروعات خيرية:**

من مساعيهم النافعة: أن ألّفوا جمعية تبحث عن البائسين من طرق خفية، وتوجّه إليهم في البريد صدقات من غير أن يشعروا بمصدرها. وقصّ عليَّ بعض أساتيذهم: أن إحدى البائسات كانت ترتزق بصنعة خياطة، فوافاها ذات يوم صاحب البريد بـ (٥٠٠) مارك، وناولها إياها، فدهشت فرحاً، واندفعت تسأل عن باعثها بإلحاح، فأبى أن يكشف لها عن الحقيقة.

وترى هذه الجمعية أن التبرع بقسط عظيم على مستحق واحد، أنفع من توزيعه على طائفة ينال كل واحد منها حصة يسيرة.

ومن الجمعيات عندهم جمعية «تخفيف المصائب»، ومن أعمالها الحسنة: أن تساعد من تنوبه مصيبة في جسده مساعدة ابتدائية، ففتحت في أقسام العاصمة محالَّ عينت لها أطباء ليسارعوا إلى علاج كل من يطرأ عليه حادث، أو يفاجئه مرض في أثناء الطريق مجاناً.

*** ترجمتهم للقرآن:**

ترجم القرآن المستشرق (ركرت) المتوفى أواسط المئة الماضية، ولكن انصرم حبل أجله من قبل أن يتم ترجمته، ثم ترجمه المستشرق (هنينك)، وهو يعيش في مدينة «فرانكفورت» ترجمة تامة، إلا أن الأول يراعي في الترجمة بلاغة اللسان الألماني، فلا يبالي بالتقديم والتأخير، والتعبير عن الحقيقة بالمجاز ـ مثلاً ـ. والثاني يحافظ على ترتيب الآية، وحقيقتها في الغالب. وقد تتبعت في كثير من السور بالمقدار الذي وقفت عليه من هذه اللغة من الاستعانة بالكتب اللغوية الألمانية العربية، فوجدته ينظر إلى المعنى الأصلي، ويتحرى في أدائه جهد استطاعته.

ووضع غير هذين الرجلين ترجمة ثالثة لم أتتبعها، ولكن قال بعض العارفين باللغتين: إنها بعيدة عن المطابقة، وليست في القرب من الصحة مثل ترجمة (هنينك).

ونبأني الأستاذ (هردر): أن إحدى الجمعيات راسلته بأن تراجم القرآن التامة قد يضيق الوقت عن مطالعتها، واقترحوا عليه أن يترجم لهم آيات من سور متفرقة، فاقتبس لهم مما ترجمه المستشرق (ركرت) آيات كثيرة في التوحيد والأخلاق والأحكام، فطبعوها مجموعة، وظهرت بينهم في مثال التراجم الأخرى.

*** عنايتهم بالعربية:**

توسلوا إلى العربية بتعليم لسانها، ثم خدموا مؤلفاتها بالطبع، واقتبسوا من حكمتها بالترجمة. ألف الأستاذ (هردر) كتاباً في قواعد العربية، فكان الكتاب المتداول عندهم في التدريس، وقد توالى عليه الطلب هذه المدة بإعادة طبعه. وألف كتاباً يفسر فيه المفردات الألمانية بما يرادفها من العربية، وأنجز طبعه في مجلد ضخم، ثم وضع كتاباً آخر اقتصر فيه على الكلمات المألوفة في الاستعمال.

ترجم المستشرق الأستاذ (متفوخ) كتاب «علاج العيون» لعمار الموصلي، وفصلَ: (علاج العيون) من كتاب علي بن عيسى في صناعة الطب، وفصل: (علاج العيون) لابن سينا، وكتاب «وقائع العرب» لأبي عبيدة بن المثنى الكبير والصغير، ونقل إلى الألمانية أيضاً ترجمة حمزة الأصفهاني، وترجمة ابن سعد مؤلف كتاب «الطبقات». وترجم الشاعر (ركرت) أحد المترجمين للقرآن «ديوان الحماسة» في شعر ألماني. وترجم المستشرق (ريشر) قصائد أبي الأسود الدؤلي،

و«مقامات الهمذاني»، و«أطباق الذهب» لعبد المؤمن الأصفهاني، و«مقامات الزمخشري»، و«الأدب الصغير» لابن المقفع، وكتاب «أحسن ما سمعت» للثعالبي، ونجز طبعها. ثم ترجم كتباً لم تبرز في عالم الطباعة مثل: «الأدب الكبير» لابن المقفع، ومقدار الربع من «معجم البلدان» للبلاذري.

وربما طبع الكتاب والرسالة بلسانها العربي، وعلّق عليها بعض بيانات بلسانه الألماني، مثل: «شرح ابن الأنباري لمعلقة زهير»، و«شرحه لمعلقة عنترة»، ورسالة «المذكر والمؤنث» لابن جني، ورسالة «في بقايا الأشياء» لأبي هلال العسكري. وكان هذا الأديب يحاورني في كثير من معاني الأبيات، أو الحكم المنثورة، وربما تعاطى الترجمة في أثناء قيامه بالوظيفة العسكرية، وبمثل هذه التراجم القديمة والحديثة كان للسان العربي ـ كما قال أحد أساتيذهم ـ أثر في رقي آداب اللغة الألمانية. ويشهد بصحة ما قاله ذلك الأستاذ أن أشهر شعرائهم (كيتي) المتوفى سنة ١٨٣٢ نظم قصيدة إبراهيم ـ عليه السلام ـ في أسلوب فلسفي، وصرح أنه اقتبسها من القرآن الكريم. والمعروف عندهم من هذا الشاعر المستشرق: أنه كان يحترم الإسلام، ويعترف بحكمته.

*** عنايتهم باللسان العثماني:**

ليست عنايتهم بالعربية لهذا العهد بأوسع من وجهتهم المصروفة في اللسان العثماني، فقد نبأني أحد المعلمين في مدرسة الألسنة الشرقية: أن المتلقين للسان العثماني هذه الآونة، يناهز عددهم (٢٠٠)، بعد أن كانوا في السنين الماضية لا يتجاوزون نصف العشر من هذا المقدار، ولبعض العثمانيين دروس خاصة، يتلقاها عنهم في إدارة الأخبار الشرقية ملأ من الألمان.

وصرف رئيس المستشرقين الأستاذ (هرتمان) همته إلى هذه اللغة، ولفت نظره إلى تتبع آدابها بطلب حثيث من عصابة المستشرقين، فنهض يحرر المقالة تارة، ويلقي المحاضرة تارة أخرى، وانعقدت منذ أشهر لجنة توالي جلساتها في دار الكتب العامة، وتنظر في القسم المؤلف بلهجة عثمانية.

* أخلاق وآداب:

يُعرف الألماني بمتانة العزم، وقلة الانقياد لخواطر اليأس، وكنت طالعت مقالات لبعض أعدائهم الذين لا يثبتون لهم الذكاء الفائق، وسرعةَ الوصول إلى الدقائق، فرأيتهم يسلمون لهم طبيعة احتمال الشدائد، والثبات على الأعمال إلى أن يحـرزوا فيها نتيجة، حتى جعلوا مقدرتهم العلمية، أو ما يظهر على أيديهم من المخترعات، إنما هو ناشئٌ عن التجلد والمثابرة على السـعي والتجربة.

ورسوخهم في خلق الصبر هو الأساس الذي قام عليه تبريزهم في القوة العسكرية. ولطالما طفت غابات وعرصات حول الثكنات، فرأيت الجندي نائماً بملابسه الجديدة ووسامه الشرف على فراش من تراب، ولا وسادة له غير ذراعه، أو قطعة من جلمود.

وما برح ملوكهم يحافظون على ما يقوي هذه الخصلة في نفوسهم، حتى بالغ (فريدريك ويلهلم) في الحط من قدر المعارف، زاعماً أنها مدعاة الفشل، وإضعاف مزية الشجاعة، وكان من أثر زعمه هذا: أنه لم يعين لتنمية دار الكتب التي أنشأها أبوه سوى ستة ماركات في السنة. ولما استقلها أهل العلم حينئذ، قال لهم: أليس في خزائنها كثير من الكتب المكررة، فيمكن أن تباع، ويستبدل بها كتب مستحدثة؟!

استحكمت بينهم روابط الوفاق والمسالمة، حتى إني أقمت ستة أشهر في برلين، وثلاثة أشهر في قرية في ضواحيها، ولم ألحظ مشاجرة، ولو بين صبيين، أو امرأتين. فعدم ملاحظة الغريب لمثل هذا في مدة واسعة، يشعر بقلة المنازعات العدوانية فيما بينهم.

ومن نتائج هذه التربية التي يعاضدها اتساع طرق الاكتساب: أن الأمة أصبحت في قرار مكين من الأمن، فلا يوجس السائر في سواد الليل بضواحي المدينة خيفة سوء، فما الحال بين جدرانها؟.

ولقد كنت أخرج من محل الأسرى عند منتصف الليل منفرداً، وأعود إلى القرية ماراً على غابة ليس فيها أنيس غير أشجارها المتعانقة، وظلامها المتراكم، ولا ألاقي في الطريق وحشة أو قلقاً. وأزداد إعجاباً بهذه الراحة الشاملة، إذا تذكرت صعاليك إيطاليا وأمثالهم، كيف ينتشرون داخل مدينة تونس أو الجزائر، ويقطعون السبيل على سكانها بنهب الأموال، وسفك الدماء، حتى لا يمر الرجل في الطرقات المنحرفة عن الجادة بعد العتمة إلا وهو يتوقع خطراً.

يمنحون الغريب في بلادهم صدراً رحباً، فيقف الرجل إذا استوضحته أمراً، أو استخبرته عن مكان، ولا يتسلل عنك إلا أن تستوفي منه بياناً كافياً، وربما تفرس منك الحيرة في الطريق، فيفاتحك بالسؤال عن الوجهة التي تريدها، ويهديك إليها بالقول المفصل، أو بالمرافقة إذا لم تكن المسافة بعيدة.

اشتبه عليَّ الطريق إلى محطة القطار في بعض الأيام، فاستكشفت عنها أحد المارين في السبيل، فأخذ يصفها بالإشارة والأمارة، ولما لم يقنع بأن عبارته وقعت مني موقع الفهم البيّن، قفل راجعاً يسايرني بمقدار عشرين دقيقة،

حتى بلغت المحطة نفسها.

يلاقي التجار والعَمَلة عندهم الوارد بجباه منطلقة، وألسنة رطبة، ويعرضون عليه ما عندهم من صنوف الأشياء التي يطلبها من غير تقاعس ولا سآمة. ولهذا الأسلوب الأدبي الاقتصادي أثر عظيم في رواج البضائع، والسباق في مضمار التجارة؛ فإن من الناس من يقصر معاملته على محل، أو يبتاع منه البضاعة، ولو شطت قيمتها؛ رعاية لما يتجمل به صاحبها من سعة الصدر، ورقة الخطاب.

يغلب عليهم خلق الرصانة والتؤدة، ولا سيما في المشاهد العامة والنوادي الجامعة.

امتطيت ذات يوم قطار المدينة، فاتفق أن كان أمامي رجل أظهر في مغازلته لامرأة طيشاً وسفهاً، فوقع في خاطري أنه أجنبي عن هذه الحاضرة، ثم إنه جاذبني عند انصرافي محادثة عرفني بها أنه من أحد الشعوب البلقانية.

ومن آثار التعليم العام: أن أصبحت الأمة بمحل الثقة في نظر الحكومة، فالقطار الكهربائي ذو درجتين متفاضلتين، وتقطع أوراق الركوب بها من طاقات في أوائل محطاتها، ولا أذكر يوماً أن مفتشاً دخل عربات الدرجة العليا ونظر في أوراقها، بل فوضوا ذلك إلى وجدان الشعب وأمانته.

أما القطار البخاري الذي يسافر من العاصمة إلى قرى تبعد بمسيرة ساعتين أو أكثر، فيتردد عليه مفتش الأوراق في الشهر مرة.

وعلى ذكر البحث في الأخلاق والآداب، أذكر أني كنت أتجول في بعض الغابات حول قرية عن برلين نحو ساعة في القطار تسمى: «فيزدورف»، فخطرت على قلبي الموازنة بين المعارف والأخلاق، وبدا لي وقتئذ أن كفة الأخلاق

الإنسانية نظراً إلى وزنها بترقياته العلمية لم تزل خفيفة، فقلت تحت عنوان: (أيها الإنسان):

أمـا كفـاك ظبـاءً أو مهـاً بربـى حتى تقنّصت آسادَ الشّرى بزُبى

وما اقتنعت بما يطفو على لجج فغـصت تلقـط دراً تحتهـا رَسَـبا

ولم تقف عند تنسيق المقال إلى أن ماج حسناً وصـار الثغـر والشنبا

وبعـد إرسـاله دهـراً أقمـت لـه وزناً، أكان حصاً ثـم انثنى ذهبا

قلّبت وجهك بعد الأرض في فلكٍ فظلت ترصد منـهُ السبعة الشهبا

أما تفقهـت عنهـا فـي حقـائق مـا وراءهـا فنضحت الشك والريبا

سار اليراع رويـداً فانتهـضت لمـا يحدو الصحائف في شـوط أو الكتبا

صغت الحديد مطايا إذ تلبثت الـ ـجياد أو لقيتْ فـي سيرها نَصَبا

ما ضاقت الأرض يوماً عن خطاك لما صعدت في الجو تحكي الطير والسحبا

واشتقت لهجة إلف واهتديت لأن تمتـع السمع منهـا حيثمـا ذهبـا

حكى الصدى صيحة رجت فجئت بما يحكي القصائد أنّى شئت والخطبا

حبُّ الحياة استثار العزم منك إلى طبٍّ وحربٍ فكنت البرء والوَصَبا

فما الطبيب بمستشفاه أرغب في الـ ـبقاء ممن يلاقي البِيضَ والشهبا

أرسلت في كـل وادٍ رائـداً فـدرى من حكمة البحث كنهَ الأمر والسببا

لكنني مـا دريـت اليـوم أنـك قـد أفرغت في نفسك الأخلاق والأدبا

كنت أسيح في تلك الغابات ترويحاً للخاطر، وإيثاراً لها في بعض الأحيان على مشاهد الحضارة وزخارفها، ولا سيما في أيام رمضان، حتى قلت

خلال السياحة في سياق الإعجاب بالبداوة والارتياح إلى بساطتها أبياتاً، صوّرت فيها حالة راعي الغنم تحت عنوان: (الملك الطبيعي).

وأذكر أني كنت ذات يوم في مقعد من أحد المنازه العامة، وفي يدي صحيفة أكتب بها بعض ما يسنح من الخواطر، فوقف علي أحد الأساتيذ، فسألني عما أكتب، فقرأت عليه من حديث تلك الصحيفة الجمل الآتية:

- يقولون: تفرقُ الأمة يفضي إلى موتها. وأقول: التفرق أثر الموت؛ فإن الجسم يموت، فتفرق أجزاؤه.

- اربط نفسك باعتقاد أنك تعمل لمن يشب، أو ينشأ بعد موتك، حتى لا يكون في صدرك حرج؛ إذ تكون بضاعتك بين أهل عصرك كاسدة.

- يتلذذ المستقيم بعفته، كما يتلذذ الفاسق ببلوغ شهوته، ولكن أمام لذة الاستقامة عقبة لا يقتحهما إلا قوي الإرادة.

- لا تثق في نفسك فيما تدعي من الإخلاص لأمتك، حتى يلذ لك أن تصلح الخلل في نظامهم وهم لا يشعرون.

- إذا وثقت بعرى التوكل على الله، لم تحتج أن تمر إلى الحق على جسر من الباطل.

- إن الرجل ليعجب مما يصنع الساحرون، أفلا يعجب من لذة تمر على قلبه من السحاب، ثم تنقلب مخازي تلبث في صحيفة حياته أحقاباً؟!.

- يكفيك فيما تجتني من ثمرة العلم الصحيح أن يرفع همتك عما فُتن به الجاهلون من زهرة هذه الحياة.

- إذا أغلق المحيط أعين رقبائك، وختم على أفواه عذالك، ثم راودك على أن تنزع حلية أدبك، فقل: ليس للفضيلة وطن، كيف تسترسل مع الأصحاب

إلى أن تحيد عن جانب الفضيلة، وهم لا يرقبون ذمتك، فيقفوا لك عندما تقف في دائرتها؟!.

ـ أسير مع الرجل على قدر ما أدرك من قيمته، فإن نظرت إليه على حسب وجاهته، أو كساد سمعته عند الناس، فقد ألقيت بنفسي في حمأة من التقليد.

ـ إذا أحببت الذي يجاملك وهو يحارب الله، لم يكن بغضك لمن حارب الله، وأمسك عن مصانعتك من قبيل الغيرة على حرم الشريعة.

ـ لا يدرك قصير النظر من الحدائق المتناسقة غير أشجار ذات أفنان، وثمار ذات ألوان، وإنما ينقب عن منابتها وأطوار نشأتها ذو فكرة متيقظة.

ـ لا تحمل نفسك ما لا تطيق من منّةِ وضيعٍ، أو نخوة فخور، فإذا أحسست في صدرك بالحاجة إليه، فاصنع ماذا تصنع لو بقي في موتته الأولى، أو أدركته موتته الثانية.

ـ لا تعجب لذوق ينكر ما ألفته، أو يألف ما أنكرته، حتى يتقلَّب في التجارب والمشاهدات التي تقلَّب فيها ذوقك أطواراً.

ـ قد يقف لك الأجنبي على طرف المساواة، حتى إذا حلّ في وطنك غالباً، دفعك إلى درك أسفل، واتخذ من عنقك موطئاً.

ـ في الناس من لا يلاقيك بثغر باسم إلا إذا دخلت عليه من باب الغباوة، أو خرجت له عن قصد السبيل، فاحتفظ بألمعيتك واستقامتك، فإنما يأسف على طلاقة وجهه قوم لا يفقهون.

ـ إن من الجهال من يرمي على مقام وجيه، فعلّمه بسيرتك القيمة أن الجهالة لا ترجح على العلم وزناً، وإن وُضع بازائها السلطة الغالبة، أو الثروة الطائلة.

ـ يكفي الذي يسير في سبيل مصلحة الأمة، وهو يلاحظ من ورائها منفعة لنفسه، أن يكون في حل من وخزات أقلامها، أما أطواق الشكر الصادق، فإنما يتقلدها المخلصون.

ـ ألا ترى الماء الذي تلقى في مجاريـه الأقذار كيف يتجهم منظرُه، ويخبث طعمه؟ فاطرد عن قلبك خواطر السوء؛ فإنه المنبع الذي تصدر عنه أعمالك الظاهرة.

ـ لا تنقل حديث الذي يفضى به إليك عن ثقة أمنك، وحسن عقيدة في أمانتك، ويمكنك متى كان يرمي إلى غاية سيئة أن تجعل مساعيك عرضة في سبيله، فتحفظ للمروءة عهدها، وتقضي للمصلحة العامة حقها.

ـ لو فكرت في لسانك حين يعرض لإطراء نفسك، لم تميزه عن ألسنة تقع في ذمها إلا بأنه يلصق بك نقيصة لا يحتاج إثباتها إلى بينة.

ـ إذا ركبت في السياسة مركب الشعر، فقلت ما لا تفعل، أوهِمْت في واد لا تعرج فيه على حق، فانفض ثوبك من غبارها، فإنه ليس بالغبار الذي يصيبك في سبيل الله.

أصغى ذلك الأستاذ إلى هذه الخاطرات، فابتسم لها ابتسام المستحسن، ولكنه ناقشني في الخاطرة الأخيرة منها قائلاً: «إن مجال السياسة أوسع من دائرة الحقيقة»، فلم يسعني في الجواب عن هذا النقد سوى أن قلت: إن الوقائع النادرة لا تمنع من سبك المقالات الموجزة وصياغتها في أساليبها المطلقة.

* نقودهم:

تحتوي الليرة على (٢٠) ماركاً، وتتركب من (٩٠٠) قسم من الذهب، و(١٠٠) قسم من النحاس، ويحتوي المارك على (١٠٠) فينيش، ويتركب

كالقطعة ذات ثلاثة أو خمسة ماركات من (٩٠٠) قسم من الفضة، و(١٠٠) قسم من النحاس، ويتركب الفينش من (٩٥) قسماً من النحاس، و(٤) أقسام من القصدير، وقسم من الزنك، وهناك قطع من النيكل ذات خمسة فينيشات، و(١٠) فينيشات، وتتركب من (٢٥) قسماً من النيكل، و(٧٥) قسماً من النحاس.

ولا فرق في المعاملة عندهم ما بين الأوراق النقدية والمسكوكات الذهبية والفضية، وكثيراً ما تعطى ورقة ذات الخمس ليرات لمن يستحق مقدار عشر متليكات؛ كصاحب القهوة، فيمسكها من غير أن يشمئز منها قلبه، ولا يعز عليه أن يصرفها بأوراق صغيرة، وكثير من المسكوكات الفضية.

*** كلمة في الموسيقى:**

اقتبسوا أنغامهم الموسيقية وتلاحينهم من الأوضاع الإنكليزية، وقد هموا هذه الآونة أن يهجروها، ويستبدلوا غيرها بها؛ قطعاً لآثار الإنكليز من بينهم، وأكبر موسيقي ظهر لديهم الشاعر (فكنر) ـ المتوفى سنة ١٨٨٣، وله روايات شعرية تستعمل في الملاهي التي تجري فيها الروايات مقارنة لأنغام موسيقية.

وتستعمل عندهم روايات (شاكسبير) الإنكليزي من شعراء المئة السادسة عشرة، وقد أحب بعضهم طرحها، والاستغناء عنها بالروايات التي هي من أوضاعهم، ورأى آخرون إبقاءها؛ لأن (شاكسبير) لم يقل في الأمة الألمانية سوءاً.

*** اللغة ونبذة من آدابها:**

تنقسم اللغة الجرمانية إلى قسمين:

شمالية، وتندرج فيها الدنيماركية، والنرويجية، والسويدية.

وجنوبية، وتدخل فيها الإنكليزية، والهولاندية، والألمانية.

واندمج في اللسان الألماني مفردات كثيرة من اللسان الفرنسي والإنكليزي، وكان فيما ولد عن هذه الحرب أن أخذوا في إلغائها، والاستغناء عنها بما يقوم مقامها من الأوضاع الألمانية، ولا يعز عليهم ذلك ما دامت لهم جمعية لغوية قائمة بإصلاح اللغة، وتكميل نواقصها.

بني اللسان الألماني على وضع الإعراب؛ مثل اللغة العربية، وينقسم الاسم فيه إلى: مذكر، ومؤنث، وواسطة يسمى: بالمجرد، وعلامات الإعراب في الأنواع الثلاثة مختلفة، ومن خواص هذا اللسان: أن يضع المتكلم أداة التعريف، ويذكر عقبها أوصاف المعرف مفرداً وجملاً، ثم يأتي بالاسم المعرّف من بعدها، وربما اشتملت تلك الجمل المتوسطة على أدوات تعريف ومعرفاتها، ويماثل هذا: أن لهم أفعالاً كثيرة تتركب مع كلمتين، وتدل على معنى واحد، فيأتي شطر الفعل في صدر الجملة، وتلقى القطعة الثانية في آخرها، وقد يفصل بين القطعتين بما ينوف على عشر كلمات.

وهذه الوجوه هي التي يلاحظها من يرى في تعلم هذا اللسان صعوبة تستدعي مدة أوسع من أوقات تعلم كثير من الألسنة، ولكنها من جهة الكتابة سهلة المأخذ جداً؛ لأن الأحرف المرسومة هي المنطوق بها من غير تفاوت.

ويلتزمون التعبير عن المفرد المخاطب بضمير الجمع، إلا أن يكون من صغار أقاربه، أو يكون الخطاب في شعر، وإيراد ضمير الجمع للمفرد المخاطب تعظيماً له لم يكن معتاداً للعرب قبل هذه العصور، وإنما يعرف منهم هذا الأسلوب في حال المتكلم، فيستعمل المتكلم ضمير الجمع مكان ضمير المفرد؛

تعظيماً لنفسه، وورد عنهم ضمير الجمع المخاطب في الواحد بقلة، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾[المؤمنون: ٩٩] الآية. حيث وقع خطاب الله تعالى بواو الجماعة؛ إجلالاً وأدباً.

وقفت لهم فيما يستعملون من محاسن البديع على مثل: الجناس، والتورية، وكانوا يعتبرون في طريقة شعرهم اتفاق الكلمات في أحرفها الأولى، وأصبحت اليوم مراعاتهم لهذا الشرط نادرة.

أما صناعة الخطابة، فإني كنت شهدت محاضرات وخطباً كان أصحابها ينظرون عند إلقائها إلى أوراق نصب أعينهم، فوقع في خاطري أن هذه الصناعة لم تبلغ عندهم أشدها، ولكني حضرت مسامرة موضوعها: «الإسلام في عالم الحرب»، فقام بعد المسامر ثلاثة خطباء من غير أوراق، وألقوا خطباً مسهبة بترسل في القول وتؤدة، ولا يشير الخطباء بأيديهم كثيراً حال الخطبة، بل سمعت منهم من ينكر ذلك الصنيع، ولا سيما حركة لا يكون وضعها مناسباً للمعنى الذي يقترن بها، وهذا ما كان العرب ينقدونه على خطبائهم أيضاً، قال الحجاج لأعرابي: أخطيب أنا؟ قال: نعم، لولا أنك تشير باليد، وتقول: أما بعد.

ويعدون (بسمارك) من أبلغ خطبائهم الذين يخطبون بلهجة شديدة، ولبلاغته في لسانهم يستشهد مؤلفو الكتب اللغوية ببعض عباراته.

يوجد في أدبائهم من يقول الشعر ارتجالاً، كنت حضرت لشاعر يقف في مشهد عظيم، فيلقي عليه طوائف من الحاضرين جملاً منثورة في معان متباينة، وهو يكتبها في أوراق بيده جملة بعد أخرى، وبأثر الفراغ من الكتابة ينطق بكل جملة منها شعراً، يؤديه في صوت جهوري، ولهجة قوية.

* **ضبط إداري:**

يوجد مع كل شرطي سِفْر في ضمنه أسماء الشوارع والحارات والمحلات الشهيرة؛ مثل: دوائر الحكومة، والمعاهد العلمية، فيستعين به في أداء وظيفته، ويهدي به من عمي عليه السبيل من السائلين، ويحمل ميزان المائعات (أريوميتر)، فيزن ما يجده عند الباعة من حليب ونحوه، فإذا عرف فيه خلطاً، أراقه، ويراقب الشرطي الغرباء وغيرهم، ويتتبعهم بالملاحظة حيثما تقلبوا. كنت ذات يوم ماراً في جادة من العاصمة، فلقيني شرطي، وناولني مكتوباً أُرسل إلي من طرف إحدى الجمعيات، وانصرف من غير أن يسألني عن اسمي.

ومن تراتيب إدارة الشرطة: أن أصحاب البيوت أو الخانات إذا نزل عندهم أحد، قدموا إليها ورقة تحتوي على اسمه وبلاده، وعمره وحرفته، ثم إن الدائرة تطلب الشخص نفسه لتنظر في حاله، وتطلع على رخصة سفره إن كان من بلاد أجنبية.

ومن شواهد اعتناء إدارة السكة الحديدية بالشؤون المتعلقة بها، وأخذها فيها بطريق الحزم، أن ضاعت مني ورقة القطار الشهرية بين «برلين» وقرية «فنزدورف»، فبقيت ثلاثة أيام أسافر بورقات يومية، ولما جئت في اليوم الرابع إلى مقطع الأوراق، أقبل عليّ أحد العاملين في الإدارة، وقال لي: ضاعت منك ورقة شهرية، وقد عثرنا عليها، ثم صعد إلى محل الإدارة، وناولني إياها، وكان وجه العجب أني لم ألقِ إليهم خبرها من قبل، ولم أضع عليها اسمي؛ ذهولاً عما جرت به عادتهم.

* **العقوبة البدنية:**

لا يجيزون العقوبة البدنية إلا لمن سجن في جناية تنزع شرفه، ويخاطب

عند ذلك بضمير المفرد المخاطب. ومن أمثلة الجنايات التي ينسلخ بها الشرف عندهم: أن يفسد الرجل عرض من لم يتجاوز عمرها الرابعة عشرة من سنها.

ويجري الإعدام قصاصاً عندهم بآلة مثل السطور تضرب في عنقه من خلف، ولا يقع علناً، بل يشهده أفراد خاصة مثل الحاكم به، والمدعي العام.

*** مسجد الأسرى:**

أنشأت الدولة الألمانية للأسرى المسلمين جامعاً للصلاة، وحماماً، ومحلات للوضوء، ومنارة شامخة للأذان، وأقامت غرة رمضان سنة ١٣٣٣ حفلة افتتاحية حضرها سفير دولتنا العلية (محمود مختار باشا)، وفريق من أعيان العسكرية، والنظارة الخارجية الألمانية، وجمع كبير من الشرقيين والمستشرقين، فألقى نائب النظارة الحربية خطاباً ترجمه إلى العربية بمنطق فصيح القبطان (منس). ثم ألقى سفيرنا خطاباً باللسان الألماني، ثم تلا إمام الأسارى، وهو من أعيانهم الجزائريين خطاباً شكر فيه رفق الدولة الألمانية، ومجاملتها لهم، ثم ألقى كاتب هذه المقالة خطاباً عربياً.

*** عنايتهم بأحوال الشرق:**

لم يكن للألمان على ما عهدوا به من إشباع البحث في أحوال الأمم عناية بمعرفة الشؤون الشرقية تشابه العناية التي أخذتهم لعهد هذه الحرب، فقد أصبحوا يوسعون البحث في أحوال الشرق، ويلتقطون دقائق أخباره السياسية أو العلمية أو الاجتماعية بملء آذانهم، ومجامع قلوبهم.

ومن أثر هذه العناية: أن أنشؤوا منذ ابتداء الحرب دائرة ترتبط بنظارة الخارجية تسمى: (إدارة الأخبار الشرقية)، واستخدموا فيها فريقاً من العارفين

بالألسنة الشرقية، فترى بين العاملين فيها الكاتب العراقي، والمصري، والجزائري، والفارسي، والحجازي، والقفقاسي، والهندي، وتجلب إليها الجرائد والمجلات العربية والتركية والفارسية والهندية وغيرها، ويترجمون منها إلى الألمانية ما يهم الاطلاع عليه، ولا سيما المقالات والآراء التي لها مساس بحالة الإسلام أو ألمانيا. ومن أعمال هذه الإدارة: نشر الرسائل والمحاضرات التي لها علاقة بالحرب الحاضرة بألسنة مختلفة.

وألقى بعض الألمانيين أيام كنت هناك محاضرات كثيرة في الكشف عن أحوال الشرق الإسلامي، منها: محاضرة تبحث عن الاقتصاد في الدولة العثمانية، وأخرى في حال الفرس، ومحاضرة موضوعها: الإسلام في عالم الحرب.

ومن عاداتهم في المحاضرة: أن ينصب المحاضر عن يساره أو يمينه خريطة البلاد التي يقصد البحث في حالتها، وربما عرضها في التمثيل (السيموتغرافي)، ويشير في أثناء تقريراته بأصبعه، أو بقضيب في يده على الأماكن التي جرته المناسبة إلى الحديث عنها.

ومن بين صحفهم مجلة تسمى: «العالم الإسلامي» تنشر الأنباء الواردة عن عالم الإسلام، وتبحث عما يجري فيه من شؤون اجتماعية أو علمية، وكنت أهديت إلى مدير الأخبار الشرقية نسخاً من تآليفنا: «الحرية في الإسلام»، «حياة اللغة العربية»، «الدعوة إلى الإصلاح»، «مدارك الشريعة الإسلامية»، «مناهج الشرف»، فعرضها على الأستاذ (مرتين هرتمان) مدرس اللغة العربية بمدرسة الألسنة الشرقية، وأخبرني هذا الأستاذ أنه كتب في التعريف بها كتابة يريد نشرها في عالم الصحافة.

*** خطاب الإمام محمد الخضر حسين في تدشين مسجد ببرلين في أثناء الحرب[1]:**

سادتي!

لا شك أن لكل حكومة سياستها الخاصة بها، والمتسمة بسمة تتجلّى في مظاهر تلك السياسة.

ولكن الحكومة التي تزدهر سياستها، والتي يبتهج الشعب بتصرفاتها، هي الحكومة التي تقيم سياستها على ثلاثة مبادئ :

المبدأ الأول: استسهال الأعمال الجبارة، والإقدام عليها دون الالتفات إلى الأخطار التي قد تنجر عن ذلك. فما من شعب يستطيع أن يتطور نحو السعادة والحرية، إلا إذا كان يقوده رجال لهم من العزيمة والحمية الوطنية ما يجعل الجبل الأشم في ناظرهم مجرد ذرة من الرّمل تدوسها أقدامهم.

المبدأ الثاني: جمع اللين إلى الحزم، والطيبة إلى الشدة، إذ لا تُغلب النفوس الشريرة، ولا يُقضى على الآفات التي تصيب محاسن الأمور وتفسدها إلا بالحزم والشدة، أو باللين والطيبة تكسب قلوب الرعية، وتستمال نفوس الأهالي.

المبدأ الثالث: منح الناس الحرية المطلقة، حتى يتمتعوا بحقوقهم الشرعية، وحتى يسلك كل فرد الطريق الذي يدله عليه ضميره.

ولا تزدهر سياسة أية حكومة إلا بقدر ما ترتكز على هذه المبادئ الثلاثة.

---

(١) خطاب الإمام محمد الخضر حسين في حفل افتتاح مسجد برلين في غرة شهر رمضان ١٣٣٣هـ.

ونحن نرى ـ في الواقع ـ: أن الحكومة التي أحسنت معاملة رعاياها، وحرصت على رخائهم أكثرَ من غيرها، هي التي تتبوأ المكانة الأسنى، والتي تحوز قوة أعظم من قوة سواها.

وإذا اعتبرنا هذه المبادئ، ونظرنا إلى حال الحكومة الألمانية، وإلى سلوكها، لا حظنا بوضوح أنها تفوقت تفوقاً كبيراً على الحكومات الأخرى، وبلغت الأوج.

وهذه الحرب الراهنة تُبرهن على ما لرجال هذه الحكومة من صبر غير محدد، وصمود لا يمكن ـ حتى للموت ـ أن يَنال منه.

ولو لم تجمع الحكومة الألمانية اللين إلى الحزم، والطيبة إلى الشدة، لما شاهدنا هذا التضامن القائم بينها وبين رعاياها، والذي يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الأمر يتعلق بروح واحدة تفرقت في جسوم عديدة.

أما عطفها على الأجناس من مختلف الأديان ـ لا سيما المسلمين ـ، وصدق طويتها نحوها، ففي الظروف الحالية برهان عليهما. لا شك أن ألمانيا لم تكتف قط بصيانة حياة المسلمين، بل بذلت كل ما في وسعها لتطوير حياتهم الروحية، ومساعدتهم على حفظ دينهم!

ومن مبرّات ألمانيا: تشييد هذا المسجد.

فهذا البناء، رغم أنه لا يحتل إلا قطعة ضئيلة من التراب الألماني، فإنه سيُحِلُّهُ من قلوبنا حيزاً بقدر ضعف مساحته، وسينمي بذلك قوته ومشاريعه.

ورغم أن الحكومة الألمانية لم تصرف وقتاً طويلاً في بناء هذ المسجد، فإن ألسنة خطبائنا وأقلام كتابنا ستلهج بشكرها، والتغني بمجدها، طالما ظلت الأرض تدور.

ومن جهة أخرى، فإذا كان إخواننا الجزائريون يذكرون أن فرنسا استولت على جامع الباي صالح بقسنطينة، وعلى الجامع الكبير في عنابّة، واتخذت منهما ثكنتين لعساكرها، فإنهم سيفهمون الفارق بين حكومة تشيد لهم، في عقرها، مسجداً جميلاً، وبين أخرى همها القضاء على الإسلام وبيوت العبادة فيه.

ولا ريب أن للمسلمين شريعة دينية وسياسة، وإن هذه المبادىء السياسية التي أَلْزَمَهُمْ بها الإسلام، وإن أهملها بعض الخامدين في سالف العصور، فقد أدرك اليوم كنهها رجال أحاطوا بمقاصدها الجليلة. وهؤلاء الرجال مصممون اليوم على أحد أمرين: فإما أن يعيشوا على هَدْيِ تلك السياسة الإلهية، وفي كنف الاستقلال التام، وإما أن يفوزوا بالجنّة في ظلال السيوف!

لقد تحققت الحكومة الألمانية من هذه الأمور، وهي شاهدة على أن الشعب الذي يسعى إلى المحافظة على استقلاله، أو إلى ما أخذ منه ظلماً محقٌّ في ذلك.

ولم تكتف ألمانيا بعدم وضع العقبات في طريق رقي المسلمين، فمدّت يداً مخلصة إلى حكومة الخليفة لإخراجها من حالة الاستبداد.

ولا نملك إلا أن نشكر رجال هذه الحكومة على مشاعر التعلق بالحرية التي يكنونها، وعلى وفائهم بالالتزامات التي أخذوها على أنفسهم.

ندعوا الله ﷻ أن يمد صاحب الجلالة الامبراطور العظيم (ويلهلم الثاني) بطول العمر، وبالنّصر على أعدائه! آمين. . . .



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة





الفهرس العام للموسوعة

الموضوع	الصفحة

تونس وجامع الزيتونة

* * *

من أوراق ومذكرات

الإمام محمد الخضر حسين

(رسائل الخضر)

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

الموضوع	الصفحة

الرحلات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

